

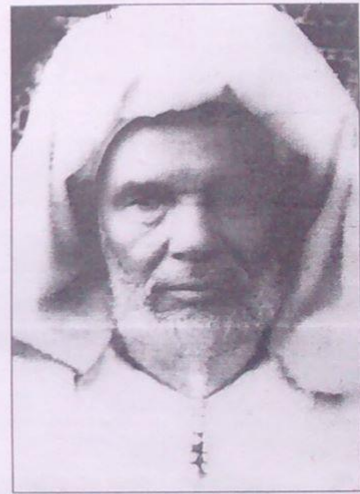
الفقيه النتيفي الجعفري

نجم أهل السنة والسلفية ، ومহারب المبتدعة والطرقية
وإمام المقاومة الزايدانية

كاتبه : محمد جعفر

الفقيه النتيفي الجعفري

2011



رقم الإيداع القانوني 2011 MO 04 47

امتسالم ...

أستسمحك يا والدي بكل عبارة قيلت في الاعتذار، وبكل شعر نُظم في شأنه، ولكن
خائني التعبير عن الاعتذار إليك، وعن استسماح شخصك الكريم في أن أكتب عنك،
فليس لي إلا أن أستعير بيت شعر قيل عنه إنه أحلب بيت شعر قيل في الاعتذار:
لا تحسبن رقصي بينكم طرباً*** فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

وما اعتذاري لك إلا لما اقترفته من خروج عن وصاياك، وأنت على فراش المرض
قد أوصيت بأنك لا تسمح بأن يقوم أحد يخاطب على رأس القبر عند الدفن وقد امتنعنا
ومنعنا، وأن لا يقام أي محفل تأبين لا في الأربعين ولا في غيرها فالتزمنا، وكما قلت
دعوني في أخراي أواجه ذنوبي التي أسلفت ولا تزيدوني ذنباً على ذنب، فالتزمت
بتعليماتك لأربعة عقود، عشتها في تردد بين أن أفعل وأن لا أفعل، لكنه عز عليّ - الآن
- أن لا يعرف الجيل الحاضر عن عالم سني سلفي قد سلف، وعن مؤلفاته العلمية
واجتهاداته الضائية التي لا تزال حبيسة المسودات. وعن محارباته لأهل البدع الضالة
المُضلة، وعن مقارعاته للمتفرجة وأفكارهم المائعة منها والمُلحدة. وعن جهاده بالسلاح
مقاتلاً وإماماً بين رجال المقاومة الزاينية للحملة الفرنسية. مما يحق معه أن يُنعت الشيخ
برجل السيف والقلم.

وها أنا ذا اليوم وبعد أزيد من أربعين سنة خلعت، أخرج عن طوعك، وأخالف
وصيتك، أعاذني الله من أن أكون قد عفت، وأسألك من دنيائي لأخراك أن تغفر لي
خطيئتي هذه، فعمدت إلى الاستخارة بالله فأصبحت موطد العزم على أن أفعل، والله

المستعان، ولي بواعث ودوافع جرتني على ما أقدمت عليه من الكتابة عنك، ومن أهمها : ظروف الحال وقد عز فيها و ندر ثمودج العلماء الجهابذة الأعلام كما كانوا وكما عايشهم الرعيل السابق، كما استشرى وانتشر ما كنتم قد أوقفتم عليه حياتكم العلمية والدعوية في محاربة الطريقة المنتدعة، والأضرحة وسدنتها الضلالة المضللة، والصوفية المغالية المهرطقة، ولا أحد ممن يدعي العلم والدعوة إلى السنة النبوية - في زمننا هذا - يقوه بكلمة حق في مواجهة هذه الضلالات، بل الأدهى والأمر أن برزت رؤوس الشياطين من مكانها بعد أن كانت تستتر عن طقوسها انتقاء ضربات علماء السنة تاريخ ذاك، فأحييت المواسم على الأضرحة ما كان منها وما لم يكن، وشجعت وحقق لها الأمن حتى توتي منكراتها في سلام، وتحدثت عنها أبواق الدعاية المقروءة والمسموعة والمنظورة على أنها إحياء لتقاليد من التراث الإسلامي وما هي من الإسلام الخفيف في شيء، ولا تمت إليه بأي صلة قط. وهو منها براء.

أفلا يكون هذا شقيعا لي لديك لأن أكتب لهذا الشعب المسلم عن أحد مناصري السنة النبوية الصحيحة والسلفية الإسلامية الصالحة، رائدي في ذلك قوله جل علاه: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» وقوله «فذكر إن نعت الذكرى» صدق الله العظيم.

ولتطمئن كل الاطمئنان في أن أنقل عنك الحقائق لا كما هي بل أقل مما هي، دون تزئيد أو مبالغات أو محسنات، والله على ما أقول وكيل.

وهدي من هذا أن ينتفع به مطلق قارئ، وبخاصة قارؤها من الضالين أو المضللين عله يرعوي ويؤوب إلى المحجة البيضاء، ويكون النفع بك حيا وميتا. فتؤجر وتُسْتَظَلَّ يعرش الرحمن - بمشيئته تعالى - عما تركت من علم ينتفع به، وهو ولي التوفيق، وأسأله تعالى أن يسبل عليك شاييب الرحمة والرضوان، انه سميع مجيب.

التعريف بالشيخ

المولد والموطن والنشأة

الشيخ هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيفي أصلا الجعفري نسبا البيضاوي موطن، ولد عام 1303 هـ الموافق لعام 1885 م، وكان مولده بقرية تدعى «قم الجمعة» من تراب قبيلة هنتيفة، وهي قبيلة تتأخم حدودها كلا من قبائل أيت عتاب ودمنات والسرغانة، ويتوسط موقعها الطريق الرابطة بين مراكش وبني ملال، وهي اليوم تابعة لإقليم أزيلال، ومن أكبر مراكزها القروية أيزو، وقم الجمعة، وتناننت، ومن أهم معالمها الطبيعية والسياحية المشهورة «شلال أوزود» «الخلاب»، وبقعد من قم الجمعة يدعى «المقاديم» عاش أسلاف الشيخ وبه سقط رأسه، وهو دوار يحمل اسما عربيا ويتكلم أهله اللهجة العربية الدارجة على خلاف أهالي القبيلة الذين يتكلمون اللهجة البربرية الأقرب إلى السوسية، وهذا التمييز عن باقي أهالي القبيلة الواحدة أت من استيطان بعض المهاجرين العرب الأشراف لقرية قم الجمعة، وهو ما نتناوله عند ذكر نسب الشيخ. وقد ولد الشيخ في وسط اجتماعي خال من كل فضيلة إلا من رحم الله، إذ كان أغلب السكان - تاريخذاك - مشغولين بالفتن والنهب شأن عموم المغرب فيما يعرف «بالسبية» أي التسبب وعدم الانقياد للحكم، وقد كان ظالما، عدا ما كانت عليه الطبيعة من شح المطر. إذ عرفت البلد الفينة بعد الأخرى مجاعات وأوبئة، ومن الناحية الدينية فعابا ما كان الناس أبعد عنه، إذ شاعت بينهم المعتقدات الفاسدة، وضعف الوازع الديني لديهم، وحتى المتدينون منهم سيطرت على عقولهم الخرافات والأوهام والخرعيلات، ففي هذه البيئة وهذا المحيط ولد الشيخ وعاش تلك الحال لفترة قصيرة من طفولته، ولعله لهندي إلهي مبكر لما سيصبح عليه هذا الطفل

في رشده حرباً عواناً على الضلالات، ففي موضوعه تحضرني واقعة حكاهما الشيخ ومعلمها أن اجتمع الناس على بقعة صغيرة من أرض السوق وهي جافة، بينما الأمطار كانت قد هطلت بغزارة، فأخذوا يتخاطفون أثرية تلك البقعة تبركا، زاعمين أن مولاي عبد القادر الجيلالي كان جالسا بها فاتحجب عنها الليل، وفي إياته والشيخ على صغره وذكراته المبكر ومن توفيق الله له. تساءل في نفسه أن لماذا لا تكون بهيمة ما كانت جائمة بالبقعة تلك أو مينة فحجبت عنها الليل.

ومن جهة أسرة الشيخ فقد كانت أسرة فقيرة عائلها والد الشيخ، وكان رجلا متدينا حائقا للقرآن الكريم، ومريداً من مريدي الطريقة «الجيلالية» القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، يكسب عيشه من شجيرات معدودة من أشجار الزيتون واللوز ومن زراعة حقول فلاحية صغيرة، وكان والد الشيخ أشد حرصاً على تعليم ابنه وتحفيظه القرآن الكريم وهو ابن أربع سنوات من عمره، يغدو به ويروح من وإلى الكتاب القرآني بمسجد القرية، وكما كان يعيب عليه البعض ذلك، وينصحون له بالاستعانة بالولد في فلاحته، وكان البعض الآخر يهزأ من أخذه الولد إلى الكتاب، فلم يتن ذلك الوالد عن عزمه في تحفيظ فلذة كبده كتاب الله.

شجرة نسب الشيخ

فالشيخ ينتهي نسبه إلى عثمان بن ناصر الذي يتصل نسبه بجعفر الطيار بن أبي طالب وهو أخو علي كرم الله وجهه.

وقد أثبت المؤرخون للأنسب والسلالات المغاربة ومنهم الشيخ أبو علي الحسن اليوسي والعلامة أحمد بن عبد القادر التناوبي، والمؤرخ السيد أحمد الناصري في كتابه «طلعة المشتري في النسب الجعفري»، أثبتوا أن عثمان بن ناصر له أولاد منهم عمرو الذي ينتهي إليه نسب الشيخ محمد بن ناصر الدرعي شيخ الطريقة الناصرية ودفين فكريوت (زاكورة)، ومن أولاده كذلك علي بن عثمان الذي هاجر من وادي

دادس ليستوطن في قبيلة هنتيفة بقرية «دم الجمعة»، وقد خلف بها من الأولاد ما تناسل فأصبحوا يدعون بالمقاديد، وعلي بن عثمان هذا دفين في الحدود الفاصلة بين قبيلة هنتيفة و قبيلة السراغة، ولا يزال ضريحه قائما وشاهدا حتى الآن. وبذلك يكون عمود نسب الشيخ هو الآتي، والله أعلم:

عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن القادر بن عبد الله بن عبد الكريم بن عبد القادر بن محمد بن علي بن عثمان (تزيل هنتيفة) ابن ناصر بن أحمد بن علي بن سليم بن عمرو بن أبي بكر بن القادر بن إبراهيم بن سليم بن حريز بن حبيش بن كلاب بن أبي كلاب ابن إبراهيم بن أحمد بن حامد بن عقيل بن معقل بن الهراج بن محمد بن جعفر الأمير بن إبراهيم ابن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعلي الزينبي هو ابن زينب بنت فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب، وكانت زينب زوجة لآل عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وولدها علي هو الجد الأعلى للشيخ بن ناصر وللجعفر بن عامة، ورغمه، فشيخنا لم يكن يحفل لذلك ويترك العمل اتكالا على شرف النسب:

إن الفتي من يقول ها أنا ذا *** ليس الفتي من يقول كان أبي.

وكان يرد على الغلاة في مباہاتهم بأنسابهم وذلك بالكثير من الحجج الدامغة، ومنها أن المرء لا تشفع له عند لقاء ربه إلا الأعمال الصالحة وليس الأنساب الشريفة، وفي الحديث: «يا فاطمة اعملي لما عند الله فإني لن أغني عنك من الله شيئا». وأن لا شرف إلا شرف العلم والتقوى، ومن يحمل ردوده كذلك الاستشهاد بالبيت التالي:

بنونا بنو أبائنا وبناتنا *** بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وأنه لحكمة الإلهية أنجب الرسول الولد الذكر وأخذ الله إليه لحكمة اقتضاها، وإلا لعبد المسلمون أحفاد الرسول أكثر مما فعلوا الآن مع الأسباط. وفي الحديث الشريف أن لافرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، وهو مثال رائع لسواسية الإسلام وبهذه للمنصرية والطبقة

لقد رفع الاسلام سلمان فارس** وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

ومن غير إغراق في الموضوع فللشيخ مؤلف في هذا الباب يشفي الغليل وقد أسماه «البراهين البينات»، في أن الأنساب ظنيات لا قطعيات»، وفيه الإقناع الحاسم بسداد رأيه في ذلك.

يقولون نسل المرء يحيا بذكره*** وليس له ذكر إذا لم يكن له نسل

فقلت لهم نسلي بدائع حكمتي*** فإن لم يكن نسل فإننا بها نسل.

دراساته على مختلف مشايخ العلم

أ- النزوح إلى سطات، وتلقيه دراسته الأولية:

تحت وطأة الجذب والمجاعة التي حلت بالبلاد والشيخ في سن السابعة رحلت الأسرة عن موطنها، وقد أستقر بها المقام بقرية سطات يومذاك، وبها أنكب الشيخ على حفظ القرآن الكريم، وأحذق القراءات السبع لأقل من سنة، وذلك بحافز من والده الذي حرك همته بإخباره أن زميلا للشيخ بكتاب قم الجمعة قد أحذق القراءات السبع، ولما أستقصى الشيخ أخبار هذا الزميل -بعد- وجده لم يحصل على ما قيل عنه. وبعد حفظه لكتاب الله وبرغبة من والده وقد طمح في أن يصبح ابنه البكر يوما ما فقيه علم، ألحقه بحلقات دروس الشيخ أبي شعيب البهلوي، وكان شيخ علم وتقوى يدرس لطلبته مختلف الفنون والعلوم، كما كان قوي القراءة إذ تفرس في شيخنا كل خير، فلا يفتر عن التنويه به، وتبشيره بمستقبل علمي زاهر، ويقربه منه ويخصه بالدعاء والخطوة، «إذا أشرقت البدايات أشرقت النهايات»، وخلال سني الدراسة هاجم «سطات» غوغاء الأعراب من القبائل المجاورة لسطات فنهوا وذبحوا وهدموا الحرمات، ولا أدل على همجيتهم وازدرائهم بالمقدسات، أن دخلوا الجامع فنهوه ودنسوا فضاءه بقضاء حاجاتهم دون مراعاة حرمة المسجد.

لا يصلح القوم فوضى لاسراة لهم** ولا سراة لهم إذا جهأ لهم سادوا

وقد قر من وجههم الشيخ البهلوي بأهل داره خوفا من بطش أولئك اللصوص، فنهوا داره ولم تسلم من نههم الكتب وهم أجهل من نعالهم وأخذوا يتخاطفونها، فأخذ الشيخ الطالب هو الآخر يخطف من بينهم ما وصلت إليه يده من الكتب، وذلك خوفا منه ألا يجد الشيخ البهلوي مراجع يدرس بها لطلبته، ثم ألتحق شيخنا بشيخه في محلته بقبيلة «البهالة»، وفي طريقه اعترضه قاطع طريق سلبه كل أمتعته، وهناك مكث الجميع إلى أن أستقرت الأحوال بسطات، فعاد الشيخ وصحبه إليها من جديد. وخلال مقام الشيخ للدراسة لدى شيخه البهلوي، كان قد قر عزم السلطان تاريخذاك على إرسال بعثة من أذكفاء الطلبة للدراسة بفرنسا، فكان شيخنا من بين المرشحين، غير أن ظروف الحملة الفرنسية لفرض الحماية على المغرب حالت دون الإنجاز.

وعن الشيخ البهلوي أخذ شيخنا طيلة مقامه بسطات دروسه الأولية في مختلف العلوم العربية والإسلامية، ومن الشيخ البهلوي تأثر شيخنا بالطريقة الكتانية إرضاء لشيوخه الذي كان كثنانيا حتى النخاع، وحصل أن تاهض البوعزاوي شيخ الطريقة البوعزاوية الطريقة الكتانية وخطأ أوراها، فما كان من الشيخ البهلوي إلا أن راسل الشيخ سيدي أحمد بن جعفر الكتاني في شأنه، وأمدّه بنسخة من كتابة للبوعزاوي بالطمع في ورد الكتاني، فكان أن ردّ الشيخ الكتاني برسالة أسماها «الكيد الكاوي في قلب البوعزاوي» فقامت القائمة بين الطريقتين في سطات ونواحيها وهي معقل الطريقة البوعزاوية، ولم يهدأ أوارها إلا بعد حين.

ب- رحيل الشيخ إلى فاس للإلتحاق بجامعة القرويين:

وفي أوائل القرن العشرين الميلادي ودع الشيخ والديه اللذين أخذوا طريق الرجعة إلى موطنهما بهنتيفة، وأخذ هو طريقه إلى مدينة فاس العاصمة الحضارية والمنارة العلمية بتغرب ذالك التاريخ، وذلك لطلب المزيد من المعرفة والعلم، والأخذ عن رجالات العلم بالقرويين، فما وصل فاسا إلا بعد اللتي واللتي، وذلك بسبب الفوضى العارمة

الضاربة أعضائها في كل أسواق القرب حينذاك، فكم مرة تعرض له اللصوص وقطاع الطريق، وكم احتسب برؤساء القبائل ووجهائها، وكم من أتاوات أداها رغما لحماية الطريق (الكساء)، ولم يتغنى الصعداء إلا بحلوله مدينة فاس، وقد تيسر له الحصول على سكن بالقرية الصباحية، فلزم الشيخ حلقات الدرس للنهل من منابع مختلف العلوم يجالس مشايخ العلماء الأجلاء، ومنهم العلامة السيد الفاطمي الشراي، والعلامة الفقيه السيد محمد التهامي كنون، والعلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحاج السلي، والعلامة الشيخ محمد بن جعفر الكتاني والعلامة أبو العباس السيد أحمد بن الحياط، والعلامة أبو محمد عبد الله الفضيلى، والشيخ أبو محمد عبد الكبير الكتاني، وغيرهم تغمدهم الله جميعا بوسع رحمته.

وقد أجازته أغلب هؤلاء العلماء المذكورين أعلاه، ومن غيرهم الشيخ أبو شعيب البهلولى، والشيخ عبد الحى الكتاني، والشيخ أبو شعيب الدكالي. وكانت تلك الإجازات مستسخة لدى الشيخ بخط مغربي جميل وفي دفتر كبير معنون بالفهرست، وهو الآن مفقود لا تدرى أي يد امتدت إليه، وأذكر وأنا جد صغير أن أستاذتني الشيخ الوالد - إمامه - على طرة إجازة الشيخ عبد الحى الكتاني ملاحظة هذا مضمونها، أن الشيخ أستاذته لما كان على هدى من الله قبل أن ينقلب حاله إلى موالاته للنصارى، وكان في مجالسه إذا روى حديثا پسند الكتاني لا يذكره إلا بشيخ أهل فاس.

ج- صلة الرحم بالأهل، وحضوره واقعة «تدارت» بالدار البيضاء:

وخلال سنة 1323 هـ - 1905 م غادر الشيخ فاسا في زيارة لشيخه أبي شعيب البهلولى والذبة، وبوصوله إلى سطات أسطحه الشيخ البهلولى معه إلى مراكش، إذ أصبح البهلولى يؤم الصلاة بالسلطان، وقد مكث الشيخ بمراكش في ضيافة شيخه نحو شهر، ألقى خلاله دروسا بجامع ابن يوسف، ومن مراكش سافر إلى هنتيقة لصلة الرحم بوالذبة، وقد طال به المقام بينهم وبعد الزيارة والتزود بالدعوات الصالحة منهما فارق أهله قاصدا فاسا من جديد، وممرجا على الدار البيضاء، وبوصوله إلى تدارت ضريح سيدي مسعود (المطل على المدينة) ألقى الحياض مضرورية والحيول مسومة، وقد

تجمع بها رجال من قبائل الشاوية ودكالة ومن أنصاف إليهم وهم في هرج ومرج، وذلك منهم لمقاومة إحتلال الحملة الفرنسية للدار البيضاء وتقدمها نحو أرباضها اثر واقعة تخريب سكة القطار الفرنسي وتخطيمه، وكان الأمر سنة 1907، فلا استعداد ولا عدة، ولانظام ولأذرية لهذه الجموع، غرّتهم عنجهيتهم وكثرتهم فأسفهاوا بشوكة العدو الكاسح وأسلحته المتطورة، فكانوا يبيتون على سماع المعازف واللهو، فما هي إلا عشية وضحاها حتى غشيتهم الجيوش على حين غرة، وأصلتهم نيران المدافع فلم تقو الجموع على الرد، بل تفرقت شذر مذر، وقد تركوا وراءهم قتلى وجرحى عدا الأمتعة والدواب، وكان الشيخ عند المداخمة يصلي صلاة الضحى، فلم يسهه إلا أن يقفز على ظهر حصان سائب، امتطاه وأسرع به بعيدا عن المخيم، وبعد هدوء الحال عاد الشيخ أدراجه ليعبر طريقه إلى فاس، فأتته نحو تادلة قاصدا إلى فاس عبر الطريق الجبلية للأطلس المتوسط مروراً بمدينة خنيفرة.

د- لطائف وأطاف أثناء المقام بفاس:

وتحضرني لطائف وأطاف حدثت للشيخ أثناء مقامه بفاس أسوق إثنين منها للذكرى والعبرة:

أ- فحسب ما سبق معرفته عن طموح والد الشيخ ورغبته في أن يصبح ابنه فقيها، فقد راسله مرة ينصحه فيها بالصبر والجد في الدرس وألا يسأم ويمل، ثم جاءته - بعد حين - رسالة ثانية من البلد لكن بإلهام منه تعالى وحسن توفيقه أن توجس الشيخ خيفة من فضها، حتى لا يتطلع على ما يصرفه عن إتمام دراسته، ويستدعيه للرحيل، فترك الرسالة جانبا إلى أن حلت العطلة الدراسية بفصل الصيف، فأقدم على الرسالة بفضها ليغاجا بخير نعي والده رحمه الله، فكان ما توقع و«قلب المؤمن خير»

ب- ومنها كذلك أن كان الشيخ كأني طالب من طلبة القرويين يتسلم كل يوم «الحبزة» وأتى له أن يجد ما يشبع جوعته، وكم كان أحوج إلى غذاء مقو مع صيام رمضان الكريم، وقد وافق - آنذاك - فصل الشتاء وناهيك بزمهرير فاس شتاء، فقبض الله للشيخ الطالب محسنا التزم بأن يمد يثرية «الحبزة» لكنه اشترط عليه أن إذا

تأخر وقد أذن للمغرب فلا يزعجهم بطرق الباب وقد أضاع «الحريرة»، ويوما ما وهو يسرع الخطأ بين «طالعات» فاس إذ فوجئ بأذان المغرب، فأسر في نفسه يا رب أصلاحي أم حريتي، فحسم الأمر بتقديم الصلاة، وبعدها أسرع للحاق طمعا في الحريرة، لكنه ما أن توسط الطريق حتى تذكر أن قد نسي السجادة «الليدة» بالمسجد وهي التي تعنيه من يرد أرض جامع القرويين بحالين الدرس، وناهيك بقر فاس، ومن أين له ما يشترى به «ليدة جديدة» إذا ما أضاع تلك وهو على ما هو عليه من الفاقة، فعاد أدراجه ليجدها في مكانها فأخذها واستأنف السير إلى دار المحسن دون أن يبأس، وبوصوله لم يجرؤ على طرق الباب تنفيذا للشرط، وإنما بقي متسكرا أمامه ينتظر فرح الله، وبينما هو كذلك إذ أطل عليه رب المنزل وهو يعتذر للشيخ عن هذا التأخير في طهي الحريرة، فتسبب الشيخ الصعداء، وعلى عكس السابق فقد قدمت للشيخ الحريرة ومعها على غير عادة صحن من «الحليج» (القليد المطبوخ) المنجلل بالبيض ومعه الخبز، فحمد الشيخ الله تعالى على كرمه ومزيد إحسانه «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب»

الإقامة بخنيفرة (تدريس ومقاومة)

قبيلة زايان من أكبر القبائل البربرية بسلسلة جبال الأطلس المتوسط، وهي قبيلة لها وزنها التاريخي في الزعامة بين قبائل الأطلس المتوسط، ويقال عن تسميتها والله أعلم أنه تحريف لكلمة «ضايان» وهو باللهجة العامية تشبة لكلمة «ضايان» (بحيرة)، وفعلا ففي تراب هذه القبيلة بحيرتان جميلتان تحفهما طبيعة خلابة من غابات الأرز السامق، واسمهما بالبربرية «الكلام أركرا» أي البحيرة الخضراء وهي تبعد عن خنيفرة ب 35 كيلومترا، و«الكلام سيدي علي» بالطريق الرابطة بين أزرو وميدلت، وعاصمة زايان «خنيفرة» وقد قيل عن تسميتها «خنفر ازيان» أي أنها تضرب (الحنافر) الأنوف، وذلك كناية عن جبروت وكبرياء أعيانها، فلا يزعجها عدو أو غريب إلا وأصابوه في خنفرها، كناية عن قهره وغلته.

وخنيفرة تتوسط الطريق بين فاس وتادلة، وهي عاصمة الأطلس المتوسط ومقلد القائد موحا أوحمو يظل من أبطال المقاومة المغربية للاجتياح الفرنسي، والذي لم يستسلم رغم الحيلانات حتى من حميم أقرباله. وبقي على استعصائه حتى أستشهد على يد أقرب الأقربين إليه الذين انضموا إلى المستعمر، فكان أن نزل بها الشيخ في طريقه من فاس فاصدا مسقط رأسه، لزيارة أمه وإخوته، وقد استضافه رفيق له في الدراسة بالقرويين وهو من ساكنة خنيفرة، ويدعى السيد صالح الرواسي فما كان من هذا الرفيق ولما يعلمه من نوع الشيخ في العلم إلا أن أشار عليه بالإقامة بتفكك الديار، بعلة أن ليس بها قلقه بأمور الدين عدا بعض القراء من حفظة القرآن الكريم، ولا تغتار الناس لمن يفقههم في أمور دينهم، فتعلل الشيخ بأنه في حاجة إلى زيارة أمه وإخوته للاطلاع على أحوالهم، سيما بعد وفاة الوالد، لكن الرفيق الصالح التزم بأن يذهب هو ورفاقه ليقدموا بالأم وأبنائهما إلى خنيفرة وما على الشيخ إلا البقاء، فقبل الشيخ على مضض، ونفذ الرفيق المشير ما وعد، إذ سافر إلى حيث الولادة لكنها امتنعت خوفا على صغارها من أن يكون الرسل من النخاسة الذين يخطفون الصغار ويتاجرون بهم. فعاد الرسول إلى الشيخ بخف حنين، ورغم فقد أطمأن الشيخ على أحوال والدته وإخوته، وأرجأ الأمر إلى حين استقرت فيه أحواله، وإلى أن هيا للأسرة السكن الرحب، وسعة العيش، فحلوا على خنيفرة حلول بين وسعادة، حامدين شاكرين الله جل كرمه.

أما الشيخ فقد وجد كل العون من القائد والعايدي خليفة القائد موحا أوحمو وهو ابن أخيه وساعده الأيمن، إذ أمد الشيخ بيناية اتخذها مدرسة، وتعلم عليه الآين الأوحيد للقائد المسمى محمد قايدى أو العايدي، فقصده العديدون ممن هم متعطشون للدرس والتحصيل، حتى امتلأت بهم رحاب المدرسة بين مقيمين وأتقيين، ودأب الشيخ على تلقين طلبته مختلف العلوم من قواعد اللغة والفقه والتوحيد والسيرة النبوية. الخ، كما أصبح مقصدا لأهل البلد طلبا للفتوى في أمور دينهم، والشيخ لا يعرف كذلا ولا مللا عن التدريس ليلا نهارا، حضرا أو سفرا، أمنا أو خوفا، فكم من الدروس عقدت والشيخ وطلبه على ظهور الدواب فاصد بين مقاومة زحف العدو المستعمر، او منتجعين مع أفراد القبيلة فرارا من عواصف الثلج وعلبا للمرضى، وقد أصبحت

المدرسة شهيرة بين القبائل يقصدونها للاستفتاء حاملين إليها مختلف الأقوات والذبايح، ولما كان عليه الشيخ من القناعة والزهد فلم يكن يستأثر بهدايا الزوار، بل كان يقتسمها مع طلبته كواحد منهم، ومن باب الفكاهة أذكر أن أحد الطلبة نصح مرة رفاقه بأن يتفقوا عن مشاركة شيخهم فيما يمنحه إياه الزائرون المستفتون، فوقف في وجهه بعضهم معتقن إياه وناعتته باللؤم، إذ هو يريد أن يمنع الشيخ من فعل الخير في طلبته، وما نصيحته إلا نصيحة الخلاء للنام.

ولم يكن الشيخ يكتفي في تربية تلاميذه بإصلاح الظواهر بالثقافة السطحية، بل اهتم بإصلاح البواطن بمواعظ القرآن الكريم والسيرة النبوية و آثار السلف الصالح، وإقامة الشعائر الدينية، فكان شعاره أن فائدة العلم العمل به، «قول وفعل هو الإسلام الرفيع»، وقد أحسن في تكوين وتربية طلابه، فنجع منهم من كانوا خير أئمة يقتدى بهم علما ودينا وخلقاً، إذ تخرج منهم علماء متمكنون من ثقافتهم، وعلى هدي وستن الاختيار، وسأنتي على ذكر أسماء بعضهم في الفصل الخاص بتلامذة الشيخ، وهكذا أمضى الشيخ سنوات إقامته في بث العلم والدعوة إلى التمسك بالدين، فكان يقوم بسياحات لذات الغرض وبصحبة تلاميذه بين القرى و دواوير ومد اشير قبيلة زايان المنبثة في ثنايا جبال الأطلس المتوسط عملا بقوله تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وبقوله عليه السلام: «لأن يهدي الله بك رجلا خير من سبعين رجل» بل شملت مقاومة العدو الدخيل المكتسح لأقاليم المغرب إقليما تلو الآخر، فكان الشيخ وتلاميذه مسلحين بالبنادق ولايتأخرون عن ركب المجاهدين في خروجهم لمقاومة الجيش الفرنسي المهاجم، وهذا ما نفرد له فصلا خاصا في هذه الترجمة، كما كان الشيخ إلى جانب مهامه تلك، وقربه أكثر من أقطاب رجال المقاومة خاصة القائد والعايدي الساعد الأمين للقائد موحا وأحمو، والعقيد الأقوي لأولعيادي ابن عمه السيد معمي بن الحاج حدو أخو القائد موحا وحمو هو كذلك، فكان الشيخ إلى جانبهم المستشار والمفتي، وكانوا هم على شدتهم وجبروتهم أطوع لنصح الشيخ وفتواه، وأجّل لشخصه واحترامه، وللمثال، فمعمي بن الحاج حدو على سمو قدره

وشهامته ولسانه وكان يهابه الجميع، يقدم أحيانا بالخيول وبالبعال إلى مدرسة الشيخ ليحمل الجميع إلى خيامه، فيستضيفهم بنحر الذبايح وإكرام الوفاة آتيا إكرام، ورغبته في ذلك كسب الأجر وقهر النفس بالتواضع، فيقسم على الشيخ بأن يقوم المضيف الشهم هو بنفسه وعلى يده بحلق الرؤوس وتصنيف اللحي للشيخ وللطلبة، فيقوم بذلك راضيا ومعتزا تواضعامه:

ملأى السنايل تنحني تواضعا*** والفارغات رؤوسهن شوامخ

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر*** على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كاللدخان علا بنفسه*** إلى طبقات الجو وهو وضع.

ولم يكن الشيخ وهو يومذاك لا يزال في عتقوان شيا به إمعة ولا يتملق، بل كان لا تأخذه في الله لومة لائم حتى مع هؤلاء الكبراء الصناديد، وعلى سبيل المثال أسوق تصرفين تصرفهما الشيخ مع أشد أقطاب كبراء البلد وأخطرهم، وقد كاد أحد التصرفين أن يودي بحياته.

أ- ذات مرة والناس يتسوقون بمكان يدعى «أركو» على مبعدة 14 كلم عن خنيفرة، بعد أن تزحوا عنها إثر احتلال الفرنسيين لها، صج السوق واختلط الحابل بالنابل، وكان السبب أن قدم على السوق أحد أبناء القائد موحا أحمو المدعو معمي نفاسية مع ثلة من صحبه وهم يحملون معهم رؤوس محترزة لضباط فرنسيين أعتالوهم «بسيدي لامين»، وكان مركزا عسكريا بين خنيفرة وأبي الجعد، فانقسم الناس في أمره على رأيين أهو مجاهد أم غادر، وأخيرا اهتموا إلى استفتاء الشيخ، فما كان منه إلا أن أفسر معمي هذا أن هل كان في مواجهة معهم؟ فأجاب بلا وأنه جاءهم هو وصحبه متظاهرين بالاستسلام ومؤمنين للضباط من أي مكروه، ولكنهم غافلوهم فاغتالوهم وجزوا رؤوسهم، فأجاب الشيخ بأن الفعل هذا غدر وليس جهادا، فما كان من معمي إلا أن شد على لحيته بيده -وهي حركة تهديدية- وأقسم بأنه سيقتل الشيخ لفتواه فيه، وقد فعلها مرة فلم يفلح وحفظ الله الشيخ منه. واستشهد في الواقعة أحد أنصار الشيخ

وهو يذاع عن شيخه. وقد قيل عن هذا الشهيد أنه أصيب بطلقة نارياً والدم ينزف منه فلم يفتر عن إطلاق الرصاص وهو على صهوة جواده دفاعاً عن شيخه، رحمه الله.

ب- وللقالد موحاً أوحى ولد آخر اسمه حسن وكان شديد المراس وطاغية لا يقيم حياة إنسان وزناً، وكان يهايه الجميع، وهو من سالم الحملة الفرنسية ونصّوه بأشأ على مدينة خنيفة بعد الاحتلال، ويوما ما زاره الشيخ بعمية طلابه في خيامه فاستقبلوا من طرف خدامه المدعوين (الشناظرة) وقدموا لهم القرى من دون أن يظهر صاحب الخيام كل ذلك الوقت، فامتعض الشيخ من عدم استقباله لهم وكاد يستأذن بالإنصراف، فإذا بالحسن قادم يعتذر ويكرر الاعتذار، وقد أسر إلى الشيخ أنه كان جُنبا فلما سمع بحضوره يادر إلى الاعتسال قبل لقاءه وهو ما أبغاه، وبينما الشيخ في حديث معه إذ قدم زبائنه بعيد من المستعبدين لديه على أنه زنا بخادمة من خدمه، وكان مصيره الموت لا محالة، فأثنت الحسن إلى الشيخ يريد فتواه فكان جواب الشيخ قاسياً دون تهيب من الرجل، سائلاً إياه ألم تفعل أنت فقط ما فعله هذا؟ فأجاب بلى، وهل أقمت عليك حداً؟ فقال لا، فعقب الشيخ بأن لا يقيم الحد على الناس إلا من بدأ وأقامه على نفسه، فأنصاع الطاغية لفتوى الشيخ ولم يغضب منه.

لا تنه عن خلق وتأتي مثله **** عار عليك إذا فعلت عظيم.

الرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج

لما كان عام 1329 هـ 1911 م تآقت نفسه الطيبة إلى طيبة وحج بيت الله الحرام، فأستعد لهذا السفر الميمون بما أستطاع إلى ذلك سبيلاً، وصحبه في سفره أجلة تلاميذه السادة الفقهاء عباس المعداني، وصالح الرواضي، ومحمد الفيلاي، واستخلف في تلاميذه وأهله الفقيه الصالح الورع السيد علل الإعشي التادلي، فكان خير خلف لخير سلف، فأمتطى وفد الله ظهور المطي مفارقين الأهل والوطن لا يشي عزمهم وعثاء السفر، ولا مخافة قطاع الطريق، شعارهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وكان لسان

حالهم يردد :

قل للحبيب الذي يرضاه سفك دمي **** دمي حل له في الحل والحرم

ان كان سفك دمي أقصى مرادكم **** فما غلت نظرة منكم بسفك دمي

وكانت مغادرتهم لخنيفة في شوال 1329، وبوصولهم إلى مرسى الدار البيضاء علموا أن السفر إلى الحجاز ممنوع، وذلك أن حكومة الحجاز وهي يومذاك تحت سلطة العثمانيين تشكو من الوافدين عليها من أجل التسول وما شاكله مما أضر بالدولة، فتكلفت إدارة السفينة الناقلة بالمراقبة، وفرضت على كل حاج توفره على مبلغ من المال المحدد سابقاً، ومخرت بهم الباخرة عبر الأطلسي إلى طنجة، وهناك أجري التفتيش، ولم يسمح بامتناء الباخرة إلا لمن يتوفر على المبلغ المحدد، فغادرت الباخرة ميناء طنجة باسم الله مجراها ومرساها وهي تشق عباب الأبيض المتوسط ثم البحر الأحمر، وكان الشيخ خلال أيام الرحلة قد عقد على متن الباخرة مجالس علمية في تعليم الحجاج مناسك الحج ودروساً في الوعظ والارشاد، كما كان يؤمهم في الصلوات الخمس، ويتصدر لإفتاء المستفسرين والسائلين، وهكذا دأب الشيخ اليوم تلو الآخر في أداء مهمته في الدعوة إلى الله إلى أن رست الباخرة على بركة الله بميناء جدة. فنزل الحجاج إلى اليابسة حيث امتطوا متون الجمال في قوافل جرارة قاصدين مكة المكرمة، وبعد يومين وهم على الرواحل بين الرجاء والخوف وصلوا مكة المكرمة، وهي تاريخذاك يحكمها باسم الدولة العثمانية الملك الحسين بن علي المدعو بشريف مكة، وذلك قبل تأسيس الدولة السعودية، وأثناء أداء مناسك الحج التقى الشيخ بالكثير من علماء الاسلام الأجلاء، وتجاوزوا الكثير من مسائل الفقه وقضاياها.. وأثناء مقامهم فوجئ الشيخ بمكة المكرمة بمرض تلميذه ورفيقه الفقيه العباس المعداني ولم يمهله المرض حتى أسلم الروح إلى بارئها، والغريب في الأمر أن المتوفى هذا كان دعاؤه دوماً بأن يتوفاه الله في مكة فأستجاب الله دعاءه، وقد وقف على الشيخ مناما فقال سأرسل لك هدية من الجنة، فرد عليه الشيخ ومن يكون الرسول؟ فأجابه المرحوم بأنه الشمس، فعجب الشيخ للأمر، ولكنه بعد أيام والشيخ بالمدينة المنورة أصيب بفسرية

شمس فأحتم جسمه، فأزَل النُمامة بتفكك القمرية الشمسية وفي حَمَل قضاء الله وقدره
أجر وتكفير للذنوب، هو حقا هدية من الجنة.

وفي الطريق إلى طيبة امتطوا من جديد ظهور المطي، فكابدوا بصبر وجهد مشاق
السفر، وجسامته الأحداث لمسافة 500 كلم، إذ كانت القوافل تقطع القياقي الفقراء دون
توقف ولا يبعد تمام مرحلة من مراحل الرحلة، وتحت وطأة حر الشمس الحارقة، الأمر
الذي يضطر معه الركاب إلى قضاء حاجاتهم من فوق ظهور الجمال وهي سائرة، ومسافة
بعد أخرى يفاجأ الحجاج بقطاع الطريق عن كانوا يدعون «بهب الريح»، يوقفون القافلة
عنوة وقد مدّوا في الحجاج بنادقهم، وهم يطالبون بالأناوة قسراً، ولا تسمع إلا صياحهم
«هات بقتيش يا حجاج» وفي إحدى المرات طالب كبير الحمالين هو كذلك المغارة
بالزبد على الأجرة المتفق عليها ناقضا العهد بعد أن توغل بالركب في الصحراء، ولما
استنكر الحجاج نقضه العهد صاح في معاونيه بأن «تورو بعيركم ياكوم وذبجوا المخارية
لأرحمهم الله»، كل هاته المتاعب أصبحت كلاشيء وقد تراءت لهم معالم المدينة
المُورَة والقبّة الخضراء شامخة من بينها، فتعالت الأصوات بالتكبير والتهليل والصلاة
على المصطفى عليه أفضل السلام، والله در من قال حين شاهد المدينة:

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر **** قمر تُقَطع دونه الاوهام

وإذا المطي بنا بلغن محمدا **** فظهورهن على الرجال حرام

قربتنا من خير من وطن الثرى **** فلها علينا حرمة وذمام

والله در القاضي عياض رحمه الله إذ يقول:

يأدار خير المسلمين ومن به *** هي الأنام وخص بالآيات

عندي لأجلك لوعة وصباية *** وتشوق متوقد الحمرات

لولا الأعادي والعوادي زرتها *** أبدا ولو سجعاً على الوجنات

ثم غادر الشيخ ورفاقه المدينة المنورة للعودة إلى جدة، والجو العام بها مكهرب إذ
احتلت مرساها بوارج حربية إيطالية، بينما جيش شريف مكة قد نصب الدافع برا
استعدادا لقصفها، لكن تدخل كل من بريطانيا وفرنسا حال دون الاشتباك فانسحبت
تلك البوارج. ومن جدة امتطى الحجاج الباخرة التي حطتهم في بيروت، ومنها ركبوا
غيرها وقد توجهت بهم إلى المغرب حيث رست في مرسى الدار البيضاء، وكان القدوم
خلال سنة 1330 هـ) فعاد الشيخ الدار البيضاء مع قافلة قاصدة «بوجعد»، وفي
أثناء الطريق توفي السيد محمد القليلاني ثاني رفقاء الشيخ، ومن «بوجعد» صاحب
الشيخ ورفيقه الثالث السيد صالح الرواضي قافلة أخرى تقصد ختيفرة، فوصلها
بعد عناء واعتراضات قطاع الطريق، فمرة حاصرهم قطاع الطريق بتراب «وادي زم»،
فأخذوا يسلبون القافلة، وما تورعوا في أن يسلبوا الشيخ حاجاته، لكن الطالب الرفيق
توسّل إليهم بأن يوفروا الشيخ، فهو فقيه عائد من الحج لتوء، فتركوا الشيخ وأقبلوا على
الطالب يسلبونه قائلين هات ما عندك فمألت بقيقه ولايحاج، ويوصلون ركب الشيخ
تلقاه الأهل والأحباب والتلاميذ بالخفاوة والولائم، وما هي إلاراحة قصيرة حتى
استأنف الشيخ مجالس التدريس كالعادة

معاصرة الشيخ للمقاومة الزايتية للحملة الفرنسية، ومشاركاته

بعد احتلال الفرنسيين للدار البيضاء سنة 1907 تقدمت جيوشهم لاحتلال
الشاوية في طريقها إلى داخل البلاد، لكنها لقيت مقاومة بطولية من القبائل المسلحة
التي لم ترض بحكم الأجنبي الكافر الغاصب، غير أنه كان في هذه الفترة أن استشرت
النقائص والنقائص في النظام العام للبلاد، وهو ما جعل كل الظروف مواتية للعدو
المكتسح في الظفر بمراده، ومن تلكم النقائص وأهمها رغم أن هذا ليس موضوعها:

-ضعف الدولة وعدم ضبطها للسير العام بالبلاد.

...الظلم الفاشي من رجال السلطة لأفراد الشعب .

...الجهل المطلق، والإعتقادات الفاسدة في كرامات أدياء الولاية والصلاح المتبذلة للعرائم... عند الاعتقاد في أن الأضرحة ودينيها سترد عنهم غائلة الكفار .

- الديون الأجنبية التي أفقرت الدولة، وجرت على البلاد وبال أطماع الدول الأجنبية .

- و السببة الفوضوية التي عمت البلاد، فاستشرت فيها عصابات قطاع الطريق، وغارات القبائل بعضها على بعض .

- بروز نظام حمائي تتجلى أفاته في خلق مغاربة محميين من طرف قناصل الدول الأجنبية الممثلين لها في المغرب، مما جعلهم محميين من أن تنالهم الدولة المغربية بسلطانها. اذ يجري عليهم ما يجري على الأجانب .

- عدم مواجهة الجيش المغربي للإكتساح الفرنسي بموجب عقد الحماية الذي أبرمه السلطان مع الدولة الفرنسية .

1- واقعة الكارثة بالشاوية

وقد خلقت هذه العوامل المذكورة وغيرها من بين المغاربة خونة ساعدوا الدولة المعتدية على احتلال البلاد، وسهلوا لها الطريق إلى مباغثة المجاهدين في معسكراتهم، ومن الأمثلة على ذلك موقعة «الكارثة» هذه. فقد أستجد بعض قواد الشاوية بالقائد موحا وحمو لسمعته ولعلاقات خاصة، وكان ذا نخوة وحمية ونجدة فما كان منه إلا أن لبى النداء، فرحل إلى الشاوية حيث عسكر يسهل الكارثة من تراب المذاكرة وبه نصبت الخيام، ولما علمه الشيخ من استهانة المعسكر بالعدو لقلعة عدده عنهم، ولما سبق ما حضره وشاهده في موقعة «تادارت» قال الشيخ لم يفته ما كان عليه المجاهدون، فلبسوا من الجيش النظامي للدولة بل مجرد متطوعين من بعض القواد والأعيان وأفراد الشعب ممن هزتهم روح الدين وحمية الوطنية، فالأغلب يبيتون على السهر والسمر غير أبهين ولا محترسين، وقد غرتهم كثرتهم بالنسبة لجيش العدو ولم يلقوا بالألفارق العناد، الأمر

الذي فطن إليه الشيخ وكان من خلقه الحزم، فألزم طلبته بتنظيم حراسة المعسكر ليلا، إذ نظموا بينهم الحراسة إثنين إثنين، يقوم إثنان على مرتفع يشرف على المعسكر لفترة من الليل يتلوان أثناءها خمسة أحزاب فيعودان إلى النوم كي يخلفهما غيرهما، وهكذا دواليك حتى الصباح، وفي يوم عند الطلائع الأولى للصباح أسرع الطالبان الحارسان إلى الشيخ ينذرانه بزحف فيالق من البشر وعلى رؤوسهم طرابيش حمر كالقلافل، وكان هذا الزي خاصا بالمجندين من المرتزقة المدعومين «بالقيلق الأجني» فأسرع الشيخ بدوره إلى إخبار قادة المعسكر لينتشر الخبر بين الناس، فقروا من وجه الجيش الفرنسي الذي كاد أن يطوق المعسكر ويطبق على الجميع، وكان الأمر كما عرف بعد بخيانة من بعض أعيان الشاوية ممن لا تهزمهم حمية الدين والوطن .

2- معركة أرغوس مارس 1913

لما احتل الفرنسيون وادي زم عاصمة بني سمير، قصدوا قبيلة السماعلة وما يليها من قبيلة بني زمو، وبين هذه الأخيرة وقبائل زايان حدود⁽¹⁾ رابطة للعلاقات بينهما فيما يشبه الحلف، فاستجدوا بالقائد موحا وحمو طالبين منه المناصرة على العدو المشترك، فلبى القائد النداء وخرج ويمعته أبناءه وخليفته البطل القائد اوالعابدي والبطل معمي بن الحاج حدو، ومن ورائهم جموع من قبائل زايان من المؤمنين المتطوعين، وما كان للشيخ أن يتأخر عن نداء واجب مقاومة المحتل، فصاحب المجاهدين هو تلامذته مسلحين بالبنادق هم كذلك، وكانت مهمته إمامة الناس في الصلوات الخمس، والسير وسط الصفوف وبين الخيام وهو يهتف ويكبر وينشد الأشعار الحماسية، ويحث على الجهاد وما يعد به الله المجاهد⁽²⁾، وهكذا ساروا في خميس جزار يتنطون الجياد، ويحملون الخيام والأمتعة على البغال، حتى نزلوا بسيطا يدعى

(1) فيما يسمى س(أغار) وهي عبارة عن سهول تشتمل مرامي القناتلي، يقع بها الزايانيون عندما تنكس الفلوج الجبال

(2) يقول القاضي الشاعر أحمد التصوري في مؤلفه «كيد الصبر من عطاء زيان وأقدس كريم» وكان من بين القراء شيخنا العلامة سيدي الحاج عبد الرحمان بنلاياد حنكة الأعلام وحسنه السلاح، وقدما أن القليل أخذ تحريرة من حروب الشاوية... حينما طلبه ذات ليلة في محاسنهم بسحر (إليهم سمعون) ذات الطريق... فمرها القليل لها الفياضة

أورغوس؛ فعسكروا فيه إذ نصبوا الخيام إلى جانب قبيلتي السماعلة وبني زمور، لكن القوم قد أعجبتهم كثرتهم فلم يقيموا وزنا للتنظيم والتكتيك العسكري للعدو المهاجم وللمعتمد المتطور لديه، إذ لم يكن المجاهدون يتوفرون إلا على البنادق، بينما الجيش الفرنسي رغم قلة عدده نسبة للمجاهدين، فهو يتوفر على أسلحة الرشاشات والمدافع وهي تصيب لمدى أبعد، وتقضي على عدد أكبر، وكان العدو -أحياناً- يقصف المجاهدين من طائرات حربية، وكان القصف هذا أشد على جموع المجاهدين، لكن الله قيض لهم الفرج بأسرهم لمجنّد ألماني من فريق المرتزقة، وقد أناد المجاهدين في الرد على الطائرات، بتوجيه القصف إلى مروحة الطائرة، وهو ما استفاد منه المجاهدون من المعلومة تلك، في إسقاط غير ما طائرة سيما وبينهم رماة لا يخطئون، وفي هذا الصدد والحرب العالمية الأولى مستعرة كان للدولة العثمانية ومن ورائها ألمانيا مطامع في المغرب، ولهما محاولات اتصال بالمناوئين للإحتلال الفرنسي، فكان الإتصال منهما بأحمد الهيبة ومحمد وحمو⁽³⁾

ورجع بنا إلى المعسكر، فقد كان سرقة القوم وكبارهم يبيتون على السهر والسمر، عدا ما كان عليه المعسكر من القوضى إذ لا نظام يضبطهم، ولا تدريب أسبق خضعوا له، ولا أسلحة ثقيلة بين أيديهم، فكان سائداً بينهم هذا الجو المنحل المطبوع بالإهمال والإستهانة بالعدو الكاسح، ولقد هدى الله الشيخ لتجربته السابقة في واقعتي تادارت والكاراة إلى أن ينبري من جديد ويزعمه إلى حراسة المعسكر حتى لا يداهم العدو على غرة، فنظم طلبته على أن يتخذوا من تل مطل على المعسكر مبيتاً لهم يتناوبون منه على الحراسة، فيبقى إثنان منهم حاملين بندقيتهما يتلوان خمسة أحزاب من القرآن الكريم، ثم يعودان ليأخذ مكانهما اثنان آخران لذات الغرض، وهكذا دواليك إلى حين الشروق، وفي الليلة الثالثة للعسكرة فوجيء المعسكر بصراخ الحراس في الناس إن العدو مطبق عليهم من كل الجهات، وماهي إلا هنيهة من الوقت حتى تجاوزت الأفاق بدوي

(3) ويحكى المورخ المنصوري بقوله: إن شيخنا قص عليه... إذا برسول محمد وحمو بطلاني... وأعلمني على الكتاب... فلما هو من سلطان الأتراك وكبير الأتراك... وإني سميتكم بالمتحاجون إليه من قوة وعاد على كتب عدوكم فرنسا... الحروب بأنا على السبع والطاعة ولا ترمخ لعدو ويسأله عن سبيل ولا تتردى معه أعتنا، فليطعن خليفة الإسلام وحليفة الأتراك.

المدافع، فتسارع الناس مرعوبين من نومهم وقد طوق العدو المعسكر، فامتطوا جيادهم معترضين العدو تدفعهم حمية الدين، ورغم عدم التكافؤ بين الطرفين فقد أبلى كل من البطليين أو العائدي و معمي نحدو البلاء الحسن، إذكروا بجموعهم على مقدمة الجيش الفرنسي الذي طوق المحلة ليقتحوا ثغرة في الطوق فأثخنوا فيهم قتلاً، وسقط الكثير من الطرفين قتلى وجرحى. وبهذه الهجمة البطولية الشرسة فتحو بها الطريق للمجاهدين للإفلات من الطوق الذي أحرق به جيش العدو على المعسكر. وعاد القائد وجموعه إلى خنيفرة موطنين العزم على أن العدو ستظل جيوشه -يوماً ما- على خنيفرة معقل زايان. وحتى يطلع القارئ على خطط الفرنسيين في اكتساحهم أرض المغرب، فبخصوص خنيفرة وهم يعلمون أنها عاصمة الأطلس المتوسط المنيع، ويعلمون صعوبة اختراق وعرجال زايان، وتأكدوا معه من بسالة القائد موحا وحمو وشراسته وصموده في المواجهة، من أجل هذه العناصر جميعها خططوا للحملة العسكرية على خنيفرة، وذلك بالهجوم عليها من ثلاث جهات، بجيش قادم من ناحية مكناس شمالاً، وبجيش قادم من «بوجعد» على طريق سيدي لامين غرباً، وبجيش ثالث قادم من تادلة جنوباً، ولم يبق في حماية ظهر المدينة إلا جهة الجبال الأطلسية وعرة المسلك شرقاً، وذلك حتى يتسنى لهم تطويقها وتقليم شوكة القائد المجاهد. وقبل وصول هذه الجيوش إلى خنيفرة، كان يعترض طريقها المجاهدون والمقاومون من بعض القواد المخلصين ومعيتهم رجالات القبائل المؤمنة المجاورة لتراب قبيلة زيان، وكان من أهم الوقائع القتالية بين المقاوم والمحتل الواقعتان التاليتان.

3- معركة «أوفود أوحجري» واحتلال خنيفرة دون مقاومة:

ولما كان عام 1333 هـ 1914 م حدث أن استصرخت قبيلة «المرايطين» بالقائد موحا وحمو ومن ورائه قبائل زايان في تحدتهم من العدو المكتسح القادم من جهة مكناس، وكانت جنوده على مشارف حدود القبيلة على مقربة من «عين اللوح»، فهبوا لنصرتهم، فكانت المعركة بموقع يدعى «أوفود أوحجري» على بعد 50 كلم من خنيفرة، وقد أبلى فيها المجاهدون البلاء الحسن، إذ كانت الحرب طاحنة سقط فيها

شهداء، كما انسحق فيها جند المعتدين، لكن فارق العناد الحربي، والخطط العسكرية الحديثة لم يقو معها المقاومون على الإستمرار وريح المعركة غير المتكافئة، فتراجع المجاهدون من قبائل «آيت امكيلد» و«لمرابطين» و«وزايان». وعاد كل إلى قبيلته.

ومن ناحية شيخنا المترجم له فقد حضر الموقعة، وقام بمهمته كالعادة بإمامة المجاهدين في الصلوات الخمس، وبالتجوال بين صفوف المجاهدين وإذكاء حماسهم، وحفظهم على الثبات، وما واعد الله به الشهداء من نعيم الجنة، وهو يرفع عقيرته بالدعاء والتهليل والحسبة والتكبير، وقد حدث في هذه المعركة أن أصاب رصاص العدو الشيخ فسقط الجواد من تحته نافقا، وكاد يتمكن بعض جنود العدو من أسره، لولا أن عاجلهم بعض المجاهدين بمعية المجاهد معمي الحاج حدو، فتصدوا للجنود في مقاومة انتحارية كللت بالنجاح، فأفرجوا الطوق عن الشيخ ومن معه من تلامذته، فإذا بالشيخ يقوم من سقطته ولم يصب بأذى عدا أن برسه قد تخرق بفعل حبات الرصاص «الرش» فأصبح كالغريال وهو يحفظ من الله. وقد أصيب كذلك الطالب صالح الرواضي بكسر مزدوج في ساقه معاً.

وما أن عادت فلول المجاهدين من المعركة، وما أن علم سكان خنيفرة بأن العدو مصيبتهم لا محالة، حتى كانت خنيفرة خالية من سكانها، أما القائد محمد اوحمو فتوجه هو الآخر صوب الجبال احتماؤه واستعدادا لجمع شتات المجاهدين، وهكذا احتلت خنيفرة دون مقاومة، لكن المجاهدين وعلى رأسهم البطل معمي بن الحاج حدو قد أشعلوها حرب عصابات وفرق موت، إذ كم من معسكر هاجموه ليلا وعلى غرة، فأثخنوا في العدو قتلا وسلبا بالخصوص للأسلحة الحديثة والذخيرة لانفجارهم - إليها. (4)

(4) يقول BELOT: «لهم مصدر فرنسي وهؤلاء الجنود القذرة كانوا يسلقون كل ليلة داخل القنطرة ويرمون منه القاذق بعد قتل الحراس ولا يستعملون إلا الحناجر حتى لا يحددوا وضعهم بالفتحة». وكانوا يرمون بها فتعجز النجاة في مهمتهم.

4 - معركة لهري الخالدة:

وفي رأي المتواضع أعتقد أن الموقعة هذه لا تقل أهمية وإجلالا عن موقعة وادي المخازن، أو عن موقعة أنوال في تاريخ المغرب، وسببها أن كان من الخطط العسكرية والتكتيكية من أجل تقليص شوكة موحا وحمو، والقضاء على مقاومته، أن عمد جيش الاحتلال إلى مباغته محلة القائد للقبض عليه، وبينما القائد على فراش النوم إذ فوجئ بالهجوم على المحلة، فما كان منه إلا أن سارع إلى جواده وهو بلباس النوم «تشمير» ومن غير أن يسرح الجواد إذ لا وقت لذلك ليفر من وجه المهاجمين المطبقين على المخيم ليلا. تاركا أهل والمتاع.

أما ما كان من العدو المهاجم فقد استولى على ما كان لدى القائد من صناديق الذهب والفضة والمعملة ومن أثاث ومتاع، والأدهى والأمر أن أسر العدو زوجات القائد وأهل الخيمة، فحمل الأسلاب والسبايا على البغال في اتجاه خنيفرة المحتلة ضغطا على القائد ودفعه للاستسلام، أما ما كان من القائد فلم تن عزمه الفاجعة في المال والولد، وإنما بادر إلى القبائل لتصبرته، فوجد عليه المتطوعون من كل حذب وصوب، وفي هذه المرة خطط القائد للمعركة من أجل افتكاك زوجاته وأهل بيته من يد العدو العاشم، وقد استخبر عن تحركات الجيش الفرنسي فعلم من بعض العيون المدسوسين بقدم فريق من تادلة في اتجاه خنيفرة، يحمل معه المؤن والعتاد، ويقوده عدد من سامي الضباط، فانتهازها القائد فرصة مواتية، اختار لها المكان وكان قرية «لهري»، وهي على مقربة من خنيفرة بـ 15 كلم تقريبا، ومحاطة بالجبال من كل جهة، وبوصول فريق الجيش الفرنسي إلى «لهري» كانت المفاجأة بتطويقه وقد أحاط به المجاهدون إحاطة السوار بالمعصم، إذ أطبقوا عليهم من كل حذب وصوب متحذرين من الجبال المحيطة بالموقع، ورغم ذلك قاوم الجيش الفرنسي مقاومة شرسة وانتحارية، لكن النصر كان حليف المجاهدين إذ أثخنوا في الفريق الفرنسي قتلا وأسرا وغنيمة، وقد حضر الشيخ الموقعة، وقام بمهمته كالعادة، وقال عن المعركة هذه إن الدماء كانت تجري كسواقي الماء هنا وهناك، إذ سقط العديد من جنود العدو بين قتلى وجرحى، وقد حصر إحصاء

رسمي في 613 قبيلة من بينهم 33 قائد حمية خنيفة و200 جندي فرنسي، و163 جريحا ما بين عدو وحليف للعدو.⁽⁵⁾

اما من جهة القائد فقد حمل معه جثث كبار الضباط إلى محله المعسكرة بين ثانيا الجبال، وكان من بين أسلاب العدو مدافع للأسف الشديد-ان ليس بين المجاهدين من يحسن استعمالها، وكانت الموقعة في يوم من شهر نونبر 1914 وعندما طار الخبر إلى مركز القيادة بخنيفة كانت الفاجعة، ولم يتمكن العدو من مطاردة القائد وأتباعه لوعورة مسالك الجبال التي نقل إليها القائد قيادته ومعسكره، فما وسعهم إلا ربط الاتصال بالقائد للمفاوضة في شأن تبادل أسرى الطرفين، وجمع موتى العدو ودفنهم، فتصالح الطرفان على تسليم جثث الضباط والقتلى مقابل فك أسر زوجات القائد وأهل بيته، فعادت نساء القائد وأهله إلى خيامهم، ولا أحد منهم تعرض لسوء من أسريهم الفرنسيين، بل كانوا قد أفردوا لهم دارا خاصة بخنيفة وأقامو عليها حراسا، وأكرموا مقامهم طيلة مدة الإقامة، وخلال هذه المعركة وأهميتها في تاريخ المقاومة المغربية، وكذلك في تاريخ اكتساح الفرنسيين لأقاليم المغرب بموجب معاهدة الحماية، اعتبر الفرنسيون تاريخها يوم حداد، وأقاموا نصبا تذكاريًا لهذه المعركة البطولية الفاجعة للعدو، وقد دام النصب قائما طيلة سني الحماية «بقريّة لهري» يراه كل مار من الطريق الوطنية بين تادلة وخنيفة، غير أنه بعد الاستقلال قد أصابه الاندثار فانتجى أثره.

وحتى يطّلع القارئ على شيء مما أوردناه عن شيخنا، فقد نشرت جريدة الاتحاد الاشتراكي بمناسبة ذكرى هذه الواقعة مقالا قال فيه كاتبه عن شيخنا مايلي:

وقد دأب موحا وحمو على هذه السنة الحميدة عندما اصطحب معه إلى ميدان المعركة الفقيه سيدي الحاج عبد الرحمان التتفي مع تلاميذه من «أجل إذكاء الحماس في صفوف المقاومين، وذلك بتلاوة القرآن وقراءة الأحاديث الشريفة... وكان هؤلاء حينما يجذّ الجذ يهرعون إلى أسلحتهم للمشاركة في القتال»⁽⁶⁾

(5) المرجع «LA PAIX AU MAROC 4 EME EDITION JULES TALLANDIERE»
(6) جريدة الاتحاد الاشتراكي عدد 25 مارس 1993 في ذكرى معركة الأهرى.

احتفاء الشيخ بجبال زايا

لما أطيقت جحافل العدو على خنيفة من كل جهة، أواسط سنة 1914 رحل سكانها عنها وأحتمى القائد بجبال زايا لما وراء وادي أم الربيع هو ومن لا يزال معه على العهد، رحل الشيخ هو الآخر بأهله وتلامذته عن خنيفة، وتابعوا المسير إلى أن أُنسقر بهم المقام بقبيلة أيت عمو عيسى، فاستقبله فضلاؤها وكبراؤها بالترحاب، فمكث بينهم مدة سبع سنوات مبعلا مكرما يعلم أبناءهم، ويجالس عوامهم حلقات الوعظ والإرشاد، فانتفعوا بعلمه، وأقبلوا على مناصرة أفكاره وتبشيريه، فأصبح كواحد منهم، يضعن بعضهم وينجع بنجمعهم، فاتخذ لنفسه قطيعا من غنم يذبح منه للضيوف لما كان عليه من كرم وسخاء، كما اشترى أرضا فلاحية يزرعها كباقي أهل البلد، وهكذا صار أهل القبيلة أنصارا له وأعاونًا يجتمعون عليه عند سماع الأذان للصلاة، وتلاوة الحزب بعد صلاتي المغرب والصبح، وسماع دروس الفقه والتوحيد. ودليلا على تلكم الرابطة التي جمعت بين الشيخ والقبيلة تلك، فقد بقوا على محبتهم للشيخ وتعلقهم به إذ دامت صلتهم به طيلة حياته يتزاوون بينهم ويستفتونه، وتضاهروا معه بزواج طالبين زايانيين من بنتين للشيخ، كما كانوا يتفنون في إكرام وفادته كلما حل بهم، ولا تزال الصلة حتى الآن سارية ومتوارثة بين أحفاد الطرفين، وهم القبيلة الزايانية التي تمتاز عن غيرها من أثر التربية الدينية التي نشرها الشيخ بينهم، ومن كثرة حفظة القرآن الكريم فيهم، ويتخصيصهم للمسجد البناية عند الظعن والحيمة عند النجع، واتخاذهم قطيعا من الغنم وآخر من البقر هو من مال المسجد لتغطية مصاريف المسجد، ولضيافة العابرين به وابن السبيل، وأتذكر في هذا المقام واقعة تمثل ارتباط هذه القبيلة بتعاليم الشيخ والسير على سننه ونصائحه، ففي أوائل استقلال المغرب، ويوم أن كان على رأس وزارة الأوقاف أحد الفقهاء، عمل السيد الوزير عن حسن نية على حمل كل قبيلة بمن يخصصون أنعاما أو أي متاع لتسيير مساجدهم على أن يبيعوا ذلك ويقدموا ثمنه إلى الوزارة، وستتقبل

الوزارة ببناء المساجد بقراهم والإنفاق عليها، وقد قدم كبار هذه القبيلة المذكورة على شيخهم يستفتونه في الأمر، فأفتاهم رحمه الله -ليعد نظره و شفافية قلبه بأن لا يفعلوا وأن ينتظروا، فإن «أنجز حرما وعد» فلن يخرجوا عن الجماعة وإلا فلا، فكان الأمر كذلك فالقبائل التي سلمت مال مساجدها للوزارة، لم يتجز لها شيء من ذلكم الوعد حتى الآن، وضاعت الأموال التي قدموها، وبقيت دون مساجد ولا أئمة يؤمنونهم ويعلمون أبناءهم، في الحين الذي بقيت قبيلة أتباع الشيخ وحتى الساعة تحتفظ بمساجدها وبماله. وتحضرني كذلك ذكرى أخرى تهتم هذه القبيلة الصالحة، فيوم أن فرض الاستعمار الفرنسي الظهير البربري على قبائل زايان، ومضمونه الفصل بين المدعين بالأعراف البربرية وليس بأحكام الشريعة الإسلامية⁽⁷⁾.

1- صدر الظهير البربري بتاريخ 16 ماي 1930 وتريد به سلطات الحماية الفرنسية عزل المناطق البربرية عن محيطها الإسلامي العربي، فجعلت مرجع الأحكام إلى الأعراف القبلية وليس إلى الشريعة الإسلامية، والمقصود منه إحياء النزعات العنصرية، والتحرر من نفوذ السلطة المخزنية والدينية لسلطان المملكة، وهو خرق ذريع لمعاهدة الحماية. والأمر منه أن ظهر اليوم على الساحة مثقفون من أصول أطلسية وريفية يدعون إلى مالم يفلح فيه الاستعمار الفرنسي، من بث العنصرية المقيتة ونشر العصبية الشعبية.

وحصل كبار القبيلة على الفتوى من شيخهم بحرمة قبول الحكم بالأعراف ونبذ شريعة الإسلام، كَوْنُوا لأنفسهم مجلس قضاء من كبارهم وأعيانهم، فكان الجميع يتصاع لمصالحته ولأحكامه الشرعية، وامتازوا بذلك عن باقي القبائل، ولم يعرف عنهم أنهم لجأوا إلى المحكمة العرفية. والغريب أن مجلس المحكمة العرفية ذاته ويرأسه

(7) صدر الظهير البربري بتاريخ 16 ماي 1930 وتريد به سلطات الحماية الفرنسية عزل المناطق البربرية عن محيطها الإسلامي العربي، فجعلت مرجع الأحكام إلى الأعراف القبلية وليس إلى الشريعة الإسلامية، والمقصود منه إحياء النزعات العنصرية، والتحرر من نفوذ السلطة المخزنية والدينية لسلطان المملكة، وهو خرق ذريع لمعاهدة الحماية. والأمر منه أن ظهر اليوم على الساحة مثقفون من أصول أطلسية وريفية يدعون إلى مالم يفلح فيه الاستعمار الفرنسي، من بث العنصرية المقيتة ونشر العصبية الشعبية.

الضابط الفرنسي رئيس الدائرة، كان إذا ما شذ أحد من القبيلة المذكورة، ورفع دعواه إلى مجلس العرف رده الضابط الفرنسي بالرجوع إلى أعيان قبيلته للنظر في قضيته، بحجة أنها قبيلة لا ينطبق عليها العرف لسبق وجود علماء الإسلام بينهم وتبنتهم بالشريعة الإسلامية على خلاف غيرهم، وهكذا كانت القبيلة مستتاة عمليا من الخضوع لأحكام العرف من بين القبائل، وذلك بفضل الآثار الإسلامية التي خلفها فيهم شيخنا الداعية المؤمن رحمه الله.

الرحيل عن زايان والنزوح إلى قاس ومصاعب الطريق:

وكم عانى أفراد هذه القبيلة المباركة من ظلم قائد البلد، وهو طرقي مبتدع، وكان يريد أن يصرفهم عن تعاليم السنة، ويكرههم على استقبال شيخه المبتدع والاحتفاء به والتزام طريقته، فما ترحزحت عقيدتهم ولا انقطعوا عن زيارة واستقبال شيخهم، وقد لاقوا مالاقوا من عنت واتهامات ومضايقات من القائد ومن مريدي الطريقة المبتدعة الضالين، بأنهم يتلقون من الشيخ تعاليم الوطنية وكرهية الفرنسيين، فما ضَعُفُوا وما استكانوا واحتسبوا ذلك بلاءً منه تعالى يؤجرون عليه بخير الجزاء، وكم من مرة في زيارة الشيخ للقبيلة ومدينة خنيفرة استدعي للتحقيق معه من طرف السلطات الفرنسية.

لما تفاقمت الأحوال بالبلاد الزايارية، وقد احتل الفرنسيون خنيفرة، ورحل عنها القائد موحا وحمو إلى الجبال احتماؤا بشناياها وغاباتنا، واستمرارا منه للمقاومة، حصل يومذاك ان انقسم رؤساء القبائل إلى قسمين:

قسم لجأ إلى العدو وصالحه، وقسم لجأ إلى الجبال في حرب عصابات مقاومة، بينما العدو وجدها فرصة لاستمالة الطائفة المنشقة ومذهب المال والعتاد، وأغراها بمحاربة الطائفة المجاهدة المعتمدة بالجبال حتى لا يغامر مواطنيه، فكثر القتلى والمعارك، وبين عشية وضحاها تصبح دواوير لأثر لها جراء اكتساحها من طرف الحوة المناصرين

للعُدو، وكان الشيخ قد نَزَحَ هو الآخر إلى الجبال إلى أن استقر به المقام بقرية تحلات من تراب قبيلة أيت عمو عيسى كما أسلفنا ذكره في فصل سابق، وقد طال المقام قرابة سبع سنوات إلى أن جاء يوم هاجمت فيه القرية جماعات من أذناب العدو يرأسهم الأقرباء المقربون من القائد، لكن النضركان حليف المجاهدين من أيت علي وأعيد أهالي تحلات، وهم من أوى الشيخ وناصر القائد البطل، وكانوا أشد وأخلص نصير للقائد موحا أوجمو، وهكذا استمرت المناوشات بين الطرفين المرة بعد الأخرى إلى أن غلب أهل «تحلات» على أمرهم ورضخوا للبيعة مستسلمين. وأمام هذا الجو المشحون بالدسائس والعدو وإنعدام الأمن، ومدّ الأخ والإبن اليد في وجه أبيه وأخيه، والتي كانت فيما بعد السبب في نهاية القائد المجاهد في معركة فاصلة، وقد تفرقت جموع المجاهد بن وقادتهم، وصالح أغلبهم الفرنسيين، واستسلم القايد والعايدي ومعهم بن الحاج حدو إلى العدو والمستعمر، في هذه الظروف وقد تفرق المجاهدون شذر مذر، ولم يبق للشيخ مقام في هذه الفوضى العارمة، خوفا من الخونة المنتصرين، ورحمة من أن تعلم عنه السلطة المستعمرة أنه (عراب المقاومة) مفتي المجاهدين وإمامهم المقتدى، فقرر الرحيل في خفية متسللا إلى فاس، سيما وقد كان يحن إليها للاستراحة من نهال العلم، ولما تتوفر عليه من خزائن كتب ومجالس علم وعلماء أجلاء، لكن الطريق إلى فاس محفوفة بالمكاره والأخطار، فبعض المواطنين يرون في قاصدي الأصقاع المحتلة بالنصارى كفارا تحل دماؤهم، فضلا عما هي عليه الطريق من خطر عصابات «السياب»، ومن جهة ثانية خوف الشيخ من علم السلطات الفرنسية بماضيه مع المقاومة الزايبانية، فكان شيخنا بن تارين، ورغم تلکم المصاعب وطد العزم على المغامرة. ودون اصطحاب أهل بيته معه تجنباً للمخاطرة بهم، فواتته الفرصة، واستنجد من أجل ذلك بطلين مغوارين هما البطل معمي بن الحاج حدو وأخيه القائد بنعة، وهذا الأخير هو والد الجنرال حمو الذي أعدم في انقلاب الصحيرات، فأسغاه على ذلك، وبعثا معه بعض رجالتهما يحمونه هو وتلاميذته إلى حدود البلاد الزايبانية، وإلى حد هنا بدأت مخاوف أخرى جديدة ومن نوع آخر، فعندما أسلموا الشيخ وتلاميذته إلى رئيس قبيلة لمرايطين بتوصية من صديقه الحميم معمي المذكور، وبحجة أن الفقيه الشيخ هو

وتلاميذه يقصدون فاسا من أجل دراسة العلم، وكانت الحجة هذه هي الشفيع للشيخ ومراقبيه، فأكرم الرجل وفادتهم على مضض وهو يسأل ويعيد ويكرر سبب النزوح إلى فاس، وعند المغادرة قبض الله للشيخ وصحبه رجلا شهما من كبراء قبيلة لمرايطين رافق الركب يخفّره ويحميه كما قبض لهم الله أيضا ركباً من الفقهاء الكتاتيين كانوا يقصدون فاسا فاصطحبهم، وقد لاقى ركب الشيخ الأحوال والعت طيلة الطريق إلى أن حظ بهم المقام بعين اللوح، وكانت يومذاك قد سيطر الفرنسيون عليها فنوذهم، ومن الألطاف الحفية أن قد اتفق فرسان من قبيلة لمرايطين أثر الشيخ وصحبه للفتك بهم بدعوى أنهم يقصدون الاستسلام للكفار، وبوصوله المطاردين إلى «وادي إيفران» كان ركب الشيخ قد دخل إلى عين اللوح وهي محتلة من لدن الفرنسيين، وبحلولهم كلّف الحاكم الفرنسي ترجمانه المدعو المدني السريغي بإجراءات التحقيق مع الشيخ وأتباعه، وهذا أيضا من عناية الله أن قبض لهم هذا المحقق الذي دافع عنهم لدى الحاكم على أنهم فقهاء يقصدون فاسا للدراسة بالقرويين، وزيادة من المحقق على تلمين الحاكم أن طلب منه أن يسمح له بإضافة الشيخ وصحبه، ففعل.

وبعد، واصل الركب الطريق إلى مكناس فمكث بها ردا من الزمن معزاً مكرماً، وقد التقى بها الشيخ تلميذه العلامة الأديب الشاعر السيد أحمد بن قاسم المنصوري، وكان قد تلقى دراسته على يد الشيخ بخنيفرة إلى حين احتلالها. فرحل إلى مكناس حيث مسقط رأس والده، وكانت صلة الأدب والعلم تربط المنصوري المذكور بالطبقة المثقفة في مكناس، ومنهم العلامة المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان نقيب الشرفاء العلويين بالمغرب إنداك، وفي مجلسه أستاذن المنصوري ابن زيدان في الانصراف، لكن ابن زيدان عارضه بأن لماذا هو مستعجل، فأجاب المنصوري بأنه ذاهب لملاقاة شيخه القادم من خنيفرة، فلم يُخَفْ بن زيدان عجه هو والكاتب بوجندار، وهو استغراب لا يخلو من تهكم، إذ تساءل هل في زايان فقيه؟! وطلبا منه القدوم بشيخه هذا إليهما، وبحضور الشيخ إلى رياض ابن زيدان، فما أن استقر به المجلس حتى بادره بوجندار بالسؤال هل تقرؤون؟ فقال الشيخ نحن في سفر، فقال بوجندار وإذا كنتم في حضر؟ فأجابه الشيخ فما يُقَدَّر، فردّ بوجندار باعجابا إني أسألك عن الفنون التي تقرؤون؟!،

فغضب عليه الشيخ بالقول ان السؤال عن الجنس لا يكون بهل بل يكون بما، ثم طالعت المحاورة بينهما قصد تعجيز الشيخ فما أفلح بوجندار في غرضه، ولما حمي وطيس المناقشة انسحب ابن زيدان من المجلس، وبعث برسالة يعتذر فيها عن الحضور، ويات الشيخ ليلته على مضض، وقد طرق سمعه ليلاً تشبيب بوجندار ونمازحته لفتى كان هناك، فلما أصبح الصباح قام الشيخ مودعاً قائلاً يا سبحان الله بالنهار فقهاء وبالليل سفهاء، فأخذ بوجندار يرددها وهو يضحك، وقد لأم الشيخ تلميذه المنصوري على توريطه في حضور مجلس كهذا لا يتناسب وأخلاق الشيخ ومواقفته.

كان نزول الشيخ بفاس لثاني مرة خلال عام 1336 هـ 1917 فاستوطنها، وهياً لطلبته السكن بمدرسة الشراطين، وأخذوا يتلقون دروسهم من شيخهم فيما بين جامع القرويين والزاوية الكبرى الكتانية، وما كان انتماء شيخنا للكتانية - كما أسلفنا - إلا بتأثير من شيخه أبي شعيب البهلولي، وكان الغرض مجرد الاحتماء بأهل الجاه لدفع الظلم ولضغط الحاجة، ثم هو من جهة أخرى فما كان أحد من علماء فاس إلا وهو ينتسب لطريقة من الطرق الصوفية، فأمام هذا الجو السائد، لم يكن من بد إلا الانتساب ظاهرياً للطريقة الكتانية، مع استبطان العديد من الاستفهامات والانتقادات لدى الشيخ، وهذه أهم الأسباب التي رجع من أجلها الشيخ إلى فاس حتى يكون أقرب من خزانة الكتب للمزيد من المعرفة والإطلاع على كتب أهل السنة، وهو ما نور بصيرته وكشف غمته، عدا ما اكتشف له - بقرينه من الكتاني - من سلوكات مخالفة ومن تلبس على العامة،

وفي أواخر سنة 1336 هـ راسل الشيخ بعض أبطال زايان عن أخلصوا له الود بأن يقدموا عليه بأهل داره وقد تركهم في قرية تدعى تخلصات، وجيء بهم إليه فسكنوا برباط بناني، وفيها أزدان فراش الشيخ بابنه الحسن بتاريخ ذي الحجة 1337 هـ الموافق: 1919.

ومن جهة الشيخ فقد تجرد لإقامة مجالس دراسية بكل من جامع القرويين والزاوية الكتانية، وكان القيم على مدرسة الشراطين الفقيه التسولي وقد منع طالبين من طلبة

شيخنا من السكن ومن «الخبرة» وهي الرغبة الذي كان يوزع يومياً على الطلبة، وما أحوجهم إليه، وقد منعها وفق إرادة المحبس، على أن أحدهما متزوج بينما منع الثاني على أنه صغير السن، فأقضى شيخنا بجواز الخروج عن لفظ المحبس مراعاة للمصلحة والحاجة، وقد هرع بعض الطلبة إلى النوازل الفقيه سيدي التهامي الوزاني يستفتونه، فصوب فتوى الشيخ، ولما بلغت التسولي فتوى الوزاني صرف الخبرة للطالب المتزوج، وحرم منها الصغير على أنه لم يصل بعد لمستوى الطلاب، فأنبرى صغير السن هذا - بإشارة من الشيخ - إلى التسولي وجمعه بالسؤال عن كلمة «مهما» أي اسم أم فعل أم حرف؟ فقالوا اسما، قال وما الدليل على اسميتها، قالوا الضمير يعود عليها، قال أين ذكر ابن مالك عود الضمير من دلائل الاسم، فلم يجز أحد منهما جواباً، فبادر الطالب الصغير بالقول:

بالجر والتنوين والتدا وأل ***** ومسند للاسم تميز حصل

فصاح التسولي الآن حصحص الحق فقد غلبكم «العابيل» وهو بلهجة أهل الريف صغير السن، وسمح للطالب «العابيل» بتسلم الخبرة.

وبفاس رزق الشيخ بابنه الحسن، وهو ثاني ابن بعد الابن البكر أحمد رحمهما الله

مصير أبطال المقاومة الزاوية الثلاثة (موحاً وحمو- والعابدي- معمي)

(أستسمح القارئ في أن أشتط عن موضوع الترجمة واستطرد إلى وقائع تاريخية، وهي مما أهمله التاريخ، وما ذكرها هنا إلا لأطلع القارئ على مآل مصير أقطاب المقاومة الزاوية الثلاثة سنة 1918 م 1337 هـ، مادام أن كان ارتباط فترة من حياة شيخنا بفترة من حياة هؤلاء الأبطال. وحتى تكتمل الصورة لدى القارئ عنهم.

جهز الفرنسيون المتصالحين معهم وعلى رأسهم أقرب الأقربين الحميمين للبطل

القائد اللذين ألقاى ذكر أسمائهم، فمدّوهم بالعدة والعتاد وأغروهم بالإموال وذلك لتعقب القائد وأنصاره من المجاهدين واقتفاء أثرهم بين ثنايا جبال الأطلس الوعرة وغاباته، والتي كانت عائقاً للفرنسيين، وخوفاً منهم من المغامرة بالجنود الفرنسيين وضباطهم في تعقب القائد البطل، وفي موقع هناك تواجه الجمعان فكانت معركة طاحنة سقط خلالها القائد البطل شهيداً (سنة 1927)، ويقال إن إصابته كانت من أقرب أقربائه، والله أعلم بالحقبة، ويستشهد بطل زايان وفخر امحزان، انطفأت هذه الشعلة المتوقدة غيرة على الدين والوطن، وفي أنفة وكبرياء من أن يحكمهم كافر، وقد تفرّق المجاهدون شذو مدبر عن قيادتهم التي فقدت المحور الجامع والعقل المدبر، أما ما كان من ساعديه البطلين القائد أو العايدي، ومعمي بن الحاج حدو فكانا قد أعلنّا سنة 1919 الاستسلام للقوة الفرنسية العسكرية بخنيفة.

قال عنه الجنرال تيغيني THVENET أحد قادة الحملة العسكرية على جبال الأطلس في مذكراته ما ترجمته: ((... وإذا كان موحا وحمو قد واصل عداؤه الشديد، وصم أذنيه عن سماع نصائح المقربين إليه الذين أرهقهم شظف العيش، فإن (...) قد تفهموا أكثر فأكثر ضرورة المسألة)).

وقال عن ظروف مقتل القائد في مارس 1927 ((... انقض مهاجماً بطولة مع أنصاره... وقاتل دون أن يفتر من الهزيمة ورفض كل عروض الأمان التي منحت إليه بسخاء)). وقال أيضاً... وأمام الخطر المحدق بقائد أتباعنا بقيادة (...) وقد هاجما العدو بعنف (القائد وصاحبه) وحميتهم هم دعاء الفرسان المحيطون به إلى الانسحاب، لكن موحا وحمو رفض التراجع ولم تمض لحظة حتى تلقى رصاصة في حلقه قضت عليه في الحال، وأخيراً انتهى أعظم زعيم في زايان وبطل المقاومة فيها... ((والحق ما شهدت به الأعداء))

((إن (فلان) أصبح في صفنا... مقابل مانسديه له من عون ودعم هام ضد ابن عمه وخصمه أو العايدي... حين أعلن أو العايدي الثورة ضد (فلان) انتهت أخيراً لصالح (فلان) وكانت هزيمة قاسية لغرور أو العايدي، لقد وهنت عزيمته أو العايدي حين أخفق

في صراعه ضد (فلان))،

ولم يبق من فلول المقاومة إلا ابن القائد معمي نقاسية، وقد توغل بجموعه في وعر الأطلس، وبقي على المناوشة والمباغلة إلى أن غلب على أمره فقر إلى المنطقة الإسبانية شمال المغرب، واستوطن تطوان إلى أن وافاه الأجل بها قبيل تاريخ استقلال المغرب بقليل، وأن ما جعل معمي القاسية يقلت بجلده هو أن واقعة اغتياله للضباط الفرنسيين «بسيدي لامين» لن يفرها له الفرنسيون، ولن يكون مصيره لو استسلم سوى الإعدام.

وفي أول أمر استسلام البطلين أو العايدي ومعمي أبقى عليهما الفرنسيون بخنيفة معززين مكرمين تحت الإقامة الجبرية، لكن ابني عمهما القائد البطل وهما (...) لم يرتاحا للمعاملة، وتخوفاً من أن يتقلدا أي منصب وهما يطمحان إلى تقلد قيادة زايان دون منازع، فألحا على الفرنسيين بتفريجهما عن البلد خوفاً من أن يحنا من جديد للمقاومة، وإثارة الناس على الدولة الحامية، فصدر الأمر من الإقامة العامة بالرباط بتفريجهما وإبعادهما إلى «مكناس» ومنها إلى «أسفي» ثم إلى «سطات» وكانت آخر منفى، أما ملاكهم العقارية والمنقولة فقد طبّق فيها ابنا عمهما (القائد والباشا) أعراف البلاد بتجريد المملوك من جميع ممتلكاته، فأستوليا على الأراضي الفلاحية وكانت تعد بالآلاف الهكتارات.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة** على المرء من وقع الحسام المهند

وتحكى في سياقه قصة طريفة، وهي أشبه ماتكون بقصة بوليسية، فأنباء الإقامة الجبرية بخنيفة للبطلين أو العايدي ومعمي، وقد ضاق هذا الأخير من تقييد حريته وأصابه الملل، وهو الصّغر الذي لا يفتر عن التحليق، والفارس الذي لا يمل سرج الجنود، والرامي الذي لا يخطئ الهدف، فأقبل على الضابط الفرنسي رئيس الناحية يستأذنه في الخروج إلى صيد الطرائد يحيط بخنيفة، فسمح له بذلك، ويعودته من رحلة القنص ورداً منه لجميل الضابط تقدم إليه بحجلة هدية منه، فتقبلها الحاكم شاكراً، وقد تفحص الحجلة الهدية، وهز رأسه إلى معمي قائلاً: إذا خرجت للصيد غدا فأنتي

بمحجلة أخرى، وفي اليوم التالي وقد قدم عليه بالمحجلة الثانية لاحظ معمي أن المحجلة الأولى لازال محتفظا بها في مكتبه، وما أن تسلمها الضابط حتى تفحصها هي الأخرى وطلب من معمي ثالثة، وفعلا قدم بها مستغربا من استمرار وجود المحجلتين الأولتين، لكن الحاكم هذه المرة رفع عنه الاستغراب، إذ تفحص الثالثة هي الأخرى وعقب عليه أنه الآن عرفنا من هو قاتل ضباطنا في المعارك السابقة، والدليل بين أيدينا فجميعهم مصابون برصاصات قاتلة في جماجمهم، والمحجلات الثلاث جميعهن مصابات في الرأس، وليس صاحبها إلا أنت!

وهكذا أنتهى مظاف النفي والإبعاد من «مكناس» إلى «أسفي» ومنها إلى «سطات» وبها وافى الأجل المحتوم البطل القائد «أوالعادي» وأواخر الأربعينات، وبوفاته أفرجت الإقامة العامة عن أسرته وعلى رأسهم أبنة الشهم الكريم قايد محمد أوالعادي وعن قريبه ورفيقه في المنفى معمي بن الحاج حدو المحزوني وأسرته، وقد عادوا لاستيطان خنيفرة، وفي طريقهم إليها عرج العائدون رجالا ونساء على دار الشيخ بالدار البيضاء حيث استضافهم لبضعة أيام على الرحب والسعة، اعترافا بالجميل وإجلالاً لهم وتقديرا على ملاقوه من عنت النفي والإبعاد لوطنيتهم الصادقة، ومقاومتهم الباسلة، ومن ثم استؤنف تبادل الزيارات بين الشيخ وأسرته من جهة وأسرتي أوالعادي الأبن ومعمي بن الحاج حدو، وقد صاهر الشيخ ابنه كاتبه بعقد زواجه على حفيده لمعمي، ولكن الأجل المحتوم واقفا رحمها الله وهي تؤدي مناسك الحج بمكة المكرمة.

الهجرة من قاس وأسبابها

لم يكن سهلا على الشيخ مغادرة قاس والهجرة منها، إذ كان متعلقا بها أشد التعلق، وذلك لأنها كانت العاصمة العلمية والحضارية بالمغرب بحق وحقيق، ولما تيسر بها للشيخ من المزيد من المعارف بارتداد خزنة القرويين ومطالعة الكتب، والعيش وسط عليا العلماء ومناقشتهم وتبادل الآراء فيما بينهم، فقد كان يعز عليه مفارقة هذا الجو العلمي الملائم، ولكنها الضغوط القوية:

ولو أعطينا الخيار لما افترقنا **** ولكن لا خيار مع الزمان

فأسباب مفارقة البلد الحبيب لدى الشيخ كانت ضاغطة وقوية، ومنها ما هو باعث شخصي على الزوج، ومنها ما هو دافع خارجي إلى البعد عن قاس، فكان من هذه الأسباب وأهمها على الخصوص أن طبائع إنسان لا يدركها غيره إلا بالاحتكاك به، ومعاشرته عن قرب ولفترة كافية، ووضع تحت مجهر التجربة والملاحظة، عند ذاك ينكشف الطبع الحق وينسلخ التطبع المصطنع، وهذا ما تعرض له الشيخ في قربه من شيخ الزاوية الكتاني، فالهالة الربانية التي كان يحيط بها الشيخ الكتاني نفسه اغتر بسراياها شيخنا كما اغتر بها غيره من المريدين (الفقراء)، فشيخنا كان أكبر اهتمامه بالعلم دراسة شخصية وتدرسا للغير، ولذلك كان يجتمع عليه الكثير من المريدين بالزاوية للسمع منه، ولكن الشيخ الكتاني كان يتضايق من ذلك فينهز فقراءه عن سماع الشيخ ويندبهم إلى تلاوة الأوراد والقيام «بالعمارة»، حتى انه مرة رفس أحدهم بقدمه قائلا، ألم أنك عن الخلو لسماع هذا، كما أخذ الكتاني في مضايقة الشيخ وطلبته وفرض سلطته عليهم، إذ حرم عليهم الخروج للسياحة إلا بإذنه، فإذا ما خرج شيخ الطريقة إلى السياحة أجبرهم على مرافقة ركبهم، وسخرهم لقضاء أغراضه، وقيد حريتهم في الحديث إلى مريد به في قضايا علمية وشريعة مخافة تنوير أفكار الدهماء الذين يحيطون الشيخ الكتاني بقدسية لا تحب الله وحده، والطريقون لأهل العلم أعداء».

ومن الأسباب التي عزت خبايا الشيخ الكتاني وكانت الحافز على الفراق، أن أبلغ الكتاني شيخنا مأمورية قال له عنها، إن سلطات الحماية عرضت عليه الوساطة بينهم وبين باقي المقاومين الثائرين المعتصمين بجبال زايان، وأن الكتاني اقترح عليهم أن يقوم بالمهمة فقيه زايان الحاج عبد الرحمان النتيقي لسابق معرفته بالبلاد وأعيانها وكبرائها، وهو أصلح من أن يقوم بهذه المهمة، فما كان من الشيخ إلى أن تسمر في مكانه، وشد أعصابه حتى لا يظهر عليه ما اضطرم في صدره من توجيه الخزي والعار لمحدثه، وما هي إلا ثوان حتى أسترجع هدوءه وألهمه الله الجواب المقنع، فتوجه إلى الشيخ الكتاني بالإعتذار عن القيام بالمهمة، وذلك بقوله إن من بقي على المقاومة والإعتصام بجبال

زايان هو معمي القاسية ابن القائد موحا وحمو، وهذا الشخص سبق لي ان أقيمت فيه واقعة استقيت فيها، وذلك أنه قدم على قيادة عسكرية فرنسية بسيدني لمن على أنه جاء هو وصحبه مسلحاً فاغتالوهم غيلة وغدراً وقد أقسم وهدد بالانتقام مني، وفعلها مرة فنجوت منه وسقط أحد الأنصار شهيداً، وهذا ما لا يعقل معه أن أقدم بنفسى على شخص لا يتورع في سفك الدماء، ومن يوم ذاك أدرك الشيخ صلة الشيخ الكتاني بالفرنسيين، وعمله على خدمة الأعداء الكفار المحتلين، وأصبح الشيخ يخاف نفوذ الشيخ الكتاني أكثر وهو يخدم الفرنسيين، وهم لا يتقاعسون في الاستجابة لرغباته. وغير هذا مما أدركه الشيخ، من هذه التصرفات السلطوية تجاه مريديه، وحرمانهم من تنوير عقولهم وتسليحهم بمسكة من العلم حتى يبقوا دهماء في خدمة الشيخ، والداية الكبرى إدراك الشيخ أن أهل الطرق دون استثناء كانوا أحد الدعائم التي اعتمدتها سلطة الحماية في بسط نفوذها على أطراف المغرب، وفي الإبقاء على الإعتقادات الوهمية المتبعة للعزائم والدعاية للإستسلام، وفوق ذلك كله أن تفتحت بصيرة الشيخ من مطالعته لكتب البسة الصحيحة على ضلالات الطريقين ومشايخهم.

وأمام هذه المثالب، وإضافة إليها ضيق العيش بفاس، سيما وغالبية طلبية الشيخ كانوا يعيشون على حسابه، لذلك قرر الهجرة بعيداً عن فاس، لكن الأمر ليس بالسهل، فالشيخ الكتاني لشيخنا بالمرصاد إذا علم بالأمر، فمن غير شك سيسيء إليه لا محالة، وسيوغر عليه صدر سلطة الحماية، وفعلًا حصل هذا منه مرّات عديدة بعد هجر الشيخ له، فانتهر شيخنا فرصة موافية سافر فيها الشيخ الكتاني إلى تونس، ورغم تشرّح حتى لا يسمع بالأمر أقطاب الطريقة فينبون عن شيخهم في إذابة الشيخ، وفي ليلة من أواخر سنة (1920-1939) وقد رتب مركوبة السفر جاء أهله على غرة، فأمر بجمع أمتعة البيت مما خف حمله وهم في عجب من أمره، وغادروا فأساً تحت جنح الظلام، فرأوا من هيمته الشّر، وفي النّفس حرقة الفراق الاضطرابي لحاضرة فاس العالمة، أما ما كان من طلبته فانقسموا إلى فريقين فريق بقي منتصباً إلى الزاوية في خدمة الشيخ الكتاني، وفريق انضم إلى شيخنا وهجر معه فأساً إلى حيث يريد الشيخ. وكان أبو الجعد

حلول الشيخ بأبي الجعد وإقامة حلقات التدريس بها

حل الشيخ بأبي الجعد «زاوية شرقاوة» وهم أيضاً طائفة من الطوائف الصوفية، لها أتباعها ومريدوها من أصقاع تادلة والشاوية، وكان حلول الشيخ بها حلول الغيث بأرض جدياء، إذ اتخذ من جامع المولى سليمان أشبه بقرويين صغرى، فأنصب هو وتبعاء طلبته إلى عقد مجالس في مختلف العلوم والفنون العربية والإسلامية، وقد اجتمع عليه وفود من الطلبة ممن انتفعوا بعلمه، فكان منهم الفقيه السيد محمد السموني والفقيه السيد عبد المالك والفقيه المتصوف السيد الجنيد وغيرهم، وقد أفرد الشيخ لعامة الناس مجلس وعظ وإرشاد فاجتمع عليه خلق كثير من بينهم أقطاب من الزاوية وأبنائهم. لكن كل ذي نعمة محسود، فقاضي مدينة أبي الجعد تاريخذاك وهو شرقاوي لم يرضه من منافسه في علم ورئاسة، سيما وقد أوغر صدره تجمع كبراء البلد وعامتها على الشيخ والتبويه بعلمه وحتى من أبناء إخوة القاضي وأبناء عمومته، فحمل حملة شعواء على الشيخ وبلغ به الأمر إلى أن شكاه للحاكم الفرنسي، زاعماً أن الشيخ وطني مبعوث من طرف ثوار الأطلس لإشعال الفتنة في البلد، وطالب بإبعاد الشيخ عن أبي الجعد، فأستدعي الشيخ للمثول أمام الحاكم الفرنسي، فحرى التحقيق مع الشيخ كالآتي:

سأله عن اسمه ونسبه وبلده وأسباب قدومه، ثم سأله عما يعلم طلبته، فأجابه بأنه يعلمهم علم التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ وغيرها، فعقب الحاكم وعلى وجهه علامة العجب ظناً منه أنه مجرد أحد القراء من «الطلبية» حملة القرآن، قائلاً: أنت عالم كبير! لكن ماذا بينك وبين القاضي؟ فأجاب بأن لا شيء قط، وانتقل الحاكم إلى القول ومن أذن لك بالتدريس في مسجد المولى سليمان؟ فرد عليه الشيخ أنه في شريعة الإسلام لا يحتاج للإذن من أنس في نفسه الأهلية للتدريس، بل الأمر واجب ديني لتبليغ رسالة العلم، فقال الحاكم لقد كان عليك أن تستأذن القاضي، فأجابه لقد أذن لي القائد فلان والقائد فلان وكبراء المدينة وأعيانها، وإلى حد هذا التحقيق صرف الحاكم الشيخ إلى حين التأكد من رأي قواد أبي الجعد ونواحيها وأعيان البلد في الشيخ،

ولما تأكد صرف النظر عن وشاية القاضي وأدرك أنه الحسد.

ألا قل لمن يأتي لي حاسدا ***** أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في صنعته ***** إذا أنت لم ترض لي ما وهب

وأمام هذه المضايقات، من تضايق قاضي المدينة ونصبه للشراك من أجل إقصاء الشيخ عن أبي الجعد، ومن ظهور معارضين للشيخ نتيجة أفكاره وأحكامه في شأن الأضرحة والطريقة، سيما وبوجد مدينة الأضرحة بامتياز ومعتل الراوية الشراقوية، كانت كلها عوامل وأسباب في عزم الشيخ على المغادرة، وللمثال والذكرى نسوق مناظرة للشيخ مع أحد المتشددین في الانتساب للزاوية الشراقوية، وفي الإعتقاد بكرامات صالحيها، فكان أن احتج هذا المناظر الشراقوي بكتاب «الذخيرة» وهو كتاب يقدسه الشراقويون، ويحكى كرامات مشايخ شراقوة، فسرده على الشيخ كرامة لشيخ شراقوة وهي أنه سمع بمولاي بوشعيب دفن ضريح أزمورقادما بوادي أم الربيع وماؤه يجري زيتاً، وذلك بغرض إقامة عرس لابنه، فغضب الشيخ الشراقوي لتجرؤ مولاي بوشعيب للمرور بمنطقته دون إذن، وقام هو ومريده ليتعرضوا إليه عند تادلة، فما كان من الشيخ الشراقوي إلا أن ضرب بعضاه النهر فتحول الزيت ماءً، فما كان من شيخنا إلا أن ابتسم وقال للرجل أن لماذا كل هذا الحسد من شيخك، فلو ترك النهر زيتاً لما احتاج المغاربة إلى زيت إلى اليوم وغداً ولأجر الله شيخك على ذلك، ثم تصدى للردود النقلة والعقلية كعادته في دحض تلك الحرافات، ثم تبجح المناظر بأنهم أشراف عمريون نسبة إلى عمر بن الخطاب، فرد عليه الشيخ أن شرف النسب أت من ذرية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أما سيدنا عمر فنسبه بعيد عن نسب الرسول، ورغمه فشرفه شرف العدل والتقوى والإسلام.

حصول النقور بين الشيخ والكتاني (إساءات الكتاني للشيخ)

كما أسلفنا في علاقة شيخنا بشيخ الطريقة الكتانية، والتي كانت من باب من

خدعنا في الله انخدعنا له، ولكن الله بصّر الشيخ بخبايا شيخ الطريقة التي ظاهرها رباني وباطنها دنيوي محض ولو بوسائل مخزية، وهو كما أسلفنا ان كان السبب في الهجرة وعلى مضض من فاس في غيبة الشيخ الكتاني إلى تونس. ويرجع الشيخ الكتاني إلى فاس من سفره، أخبر برحيل الشيخ وأهله عن فاس، فغضب لذلك غضباً شديداً وتوعد بأفدح انتقام، وكعادة شيخ الطريقة يخرج للسياحة من قبيلة إلى أخرى ممن له فيها مريدون لطريقته، وقد عرج على أبي الجعد ولعل ذلك كان مقصوداً منه، فأخرج شيخنا وجاء إلى الكتاني يعتذر عن الهجرة من فاس ويستدعيه للضيافة في بيته، فلم يرض بل أطلق العنان للسان بالتوبيخ والتقريع أمام الجموع، مضيقاً أن الخروج بدون إذن هو خروج عن طاعة الأشياخ وعرضه لسلط الله والأشياخ، فأسرّها الشيخ في نفسه ولم يبد إلا جميلاً، وخرج من مجلس الكتاني ولسانه يردد هذا فراق بيني وبينك، وهو يبكي من تلكم الصدمة، وقد لحق به بعض أفاضل المدينة يهتفون عليه غضب الكتاني وتأنيبه، وعازاد الشيخ ألماً أن طائفة من الطلبة ممن لم يكونوا يريدون من تعلمهم إلا الحصول على الوظائف، وتسخيرهم لجمع حطام الدنيا قدوة بشيخ الطريقة، انضموا إلى الكتاني وفارقوا الشيخ.

وبذلك انقطع الوصل بين الكتاني والشيخ، وأصدر الكتاني أمره إلى مقدمي طريقته في القبائل بأن الشيخ عبد الرحمن التتيفي أنسلخ من الطريقة، وهو معرض لسوء الحاتمة، وألا يقبلوا بزيارته لهم أو بسماعه أو باستقباله. ومن ترهات وأباطيل شيوخ الطرق والتي لم يشدّ عنها الشيخ الكتاني أن حصل أن كان في سياحة من سياحاته بالقبائل التي تعتق الطريقة الكتانية، وبالضبط كان بقبيلة السماعلة من تراب تادلة، فجاءه بعض خواصه وحفاظ أسرارهم يخبره أنه قادم لتوه من الدار البيضاء. وكان الشيخ قد استوطنها، وقد سمع أن الحاج عبد الرحمن التتيفي قد فقد بصره، فسر الكتاني للخبر وسأل المخبر أن إذا كان قد أسر بالخبر للغير فنفي ذلك، فقال أكنتم السر حتى أذن لك بإفشائه، ثم توجه الكتاني إلى جموع المريدین وهم حشود كثيرة قائلًا تعلمون أن التتيفي كان مريد الطريقة وقد أنسلخ عنها وعاقبته لن تكون خيراً، وليس لي من دعوى أوجهها له إلا أنه كما عميت بصيرته فاللهم أعم بصره، فدوى الجميع كالرعد

بالتأمين على دعوى الشيخ، وبعد ثلاثة أيام أوعز للمخير بإشاعة الخبر أثناء تجمع حشود المريدين عليه، وبينما الجمع منعقد إذ قدم المخير بتعثر وسط الجموع ليصل إلى الشيخ وهو ينادي بأعلى صوته أنا قادم لتوي من الدار البيضاء وقد أصبح هذا الصباح التيفي أعمى لا يبصر، فهلت الجموع وكبرت وأقدمت على الشيخ الكتاني تتمسح وتبرك وتغلق في «الزيارة» «المطاء»، وهم يتبادلون الخبر في عجب وإيمان بكرامات الشيخ ودعوته المقبولة، ويتهيبون من الردة عن الطريقة وعواقبها، وليس الكتاني وحده فقد كان طريقو الدار البيضاء ويمتدعنها يسمعون بأن أولياء الله هم من أعموه، ولم يتخف الكتاني عن إذابة الشيخ، ففي غير ما مرة أوعز لسلطات الحماية بأن الشيخ وطني من ثوار زايان، وأن أخويه ألقوا عليهما القبض بخنيفة بدعوى الوطنية، وتقرر فيهما النفي والإبعاد، فكان الله في كل دسية يكتب للشيخ السلامة، ونسوق للمثال آخر إجابته في الآتي:

حصل ذات مرة أن خرج الشيخ في سياحة لزيارة بعض سابق تلاميذه ومعارفه ممن يحبونه ويقربونه لعلمه وسلوكه المثالي، فأخذ ينتقل من قبيلة إلى أخرى ابتداءً من أحواز الدار البيضاء إلى خنيفة، فكان الشيخ يستقبل استقبال أفراس وتكرم، وتجمع عليه جموع المستقبِلين للإستغناء في قضاياهم الشرعية ولسماع الوعظ والإرشاد، ويحضر الصدقة أن كان الشيخ الكتاني قد خرج للسياحة هو كذلك، ولذات المنطقة وذلك في حملة منه لتهتة أتباع الطريقة لأحداث ما قبل نفي الملك الشرعي سنة 1953م، فكان كلما حلّ بقبيلة إلا وأخبره مريدوه بأن الفقيه التيفي سبق أن حلّ بها، فما كان من الشيخ الكتاني إلا أن قامت قيامته، ورأى في سياحة شيخنا تهديداً لمهمته ودعوة لانسلاخ مريديه من الطريقة، فوشى بالشيخ للسلطات الفرنسية على أنه حل بالقبائل ناشراً بين أفرادها الوطنية، وضداً على حملته المقصودة، ويعمل جاهداً على إنسلاخ المريدين من الطريقة، فكان أن تقرر إبعاد الشيخ من الدار البيضاء ونفيه إلى مسقط رأسه بقبيلة هنتيفة. وحتى يهيب الفرنسيون لتنفيذ القرار جرى التحقيق في كل من الدار البيضاء وخنيفة، فقد أسر قاضي خنيفة يوم ذاك إلى الشيخ بأن بحثا جرى معه في شأن نفي الشيخ للإقامة الجبرية بهنتيفة، فأجاب القاضي بأن

الشيخ من كبار علماء المغرب، وإن أي بلد في المغرب حل بها هذا الشيخ إلا أحبه الناس وأجمعوا حوله، وأنه محسود لسعة علمه ممن يريدون إبعاده عنهم، فستل عمن يكونون أعداءه فأجاب شيخ الطرق وألذ هم عداء الشيخ الكتاني، وأجري كذلك استجواب لقائد البلد بعد إعلامه بنهيء سكس للشيخ المراد إبعاده، وسئل عن رأيه فيه فأجاب أن الشيخ هذا معروف ومحترم من لدن السكان هنا، ويتلقونه كلما زار بالأفراح والترحيب، فإذا كان كما قلتم وطنياً فإن وجوده بقيادتي ستنتشر معه الوطنية ويفسد على الناس، والذي أعلمه عنه غير ذلك، فكم مرة زار البلد واستغفقه في بيتي فلا يتكلم إلا في أمور الدين. أما البحث الذي جرى من طرف سلطات الدار البيضاء، فقد قيد الله أن كان أخوان عدلان بالمحكمة الشرعية بالدار البيضاء يعطفان كثيراً على الشيخ لعلمه، ويستغفانه المرة بعد الأخرى في قضايا فقهية تخصهما في حرفتهما، ولم يكن يعلم الشيخ عنهما إلا خيراً، ولكنهما كما تبين بعد كانا على علاقة مشبوهة بسلطات الحماية، فدعا لهما بالهداية. وفي زيارة منهما للشيخ، أبلغاه أنهما أستدعيا من طرف رئيس الناحية بالدار البيضاء، من أجل إستقصاء أخبار الشيخ حتى ينجز عنه تقريراً للإقامة العامة استعداداً لإبعاده عن الدار البيضاء، فنفى العدلان أن يكون قد صدر من الشيخ أي عمل ضد سلطات الحماية، وإنما هو محسود لعلمه ومغفوس لانتقاده لمشايخ الطرق الصوفية، فستل عمن يريد به شراً فأجابا جميع مشايخ الطريقة سيما الشيخ الكتاني، فما ألقاهما حتى ضرب رئيس الناحية بيده على منضدة المكتب وقال هو ذاك. ولعله بموجب هذه التقارير قد تروّج عن قرار إبعاد الشيخ، أو لما ألت إليه الأوضاع بعد نفي الملك محمد بن يوسف، إذ لم يتفقد شيء من ذلك، ولم يفتقر قط الشيخ الكتاني عن ذكر الشيخ بنوع مشبوهة. وكلما طرأ ذكر الشيخ أمامه إلا وفاء في حقه بما لا يلبق، وقد حفظ عنه يوماً بعض الأفاضل ممن حضر جمعهم أن نعت عالمية الشيخ «بعقد الذهب في عتق الكلب» سامحه الله، وهو منه اعتراف بعالمية الشيخ وقدره في شخصيته، والمراد قوله أنه عقد علم في عتق شخص لا يستحق حمله.

وقد اعتاد الشيخ الكتاني - الفينة بعد الأخرى - على القدوم إلى الدار البيضاء، وإقامة بضعة المجالس بالمسجد المحمدي حيث يقيم شيخنا مجالسه، فكان الشيخ

يتخلف عن إقامة مجالسه إلى أن يرحل الكتاني، وحتى لا تحصل أي لقباً بينهما لا قصدا ولا صدفة، وذلك منه إتقاء للشراً واستنكاراً للإبتداع ولولاة المستعمر الكافر.

وللدلالة على انسلاخ شيخنا من الكتانية وأهلها، وماترتب عنه من حقدهم عليه نورد كتابة لأحد أقطابهم في حق شيخنا (8)

استقرار الشيخ بالدار البيضاء

كان السبب المباشر لهجرة الشيخ إلى الدار البيضاء أن اصطحبه أحد جلسائه بجعد أصله من فاس إلى عرس لعائلة فاسية تستوطن الدار البيضاء، وفي حفل العرس حضره بعض العلماء، وكالعادة دارت مناقشات علمية بينهم، فأنبرى شيخنا للمشاركة فكان لامعا إذ أجاد وأفاد، مما نبه إليه رب الدار (السيد يعقوبي) وكان من أعيان الدار البيضاء، فتوجه إلى شيخنا بالقول: إن علمك هذا يجب نشره في مدينة لا أن يحبس في قرية، وزين للشيخ الانتقال إلى الدار البيضاء، وأنه يتكفل بمصاريف الارتحال، وطلب من الشيخ أن يمكث بينهم بضعة أيام لإقامة دروس بالمسجد، فمكث شهرا قبل أن يعود إلى بجعد للقدوم بأهل بيته.

وأخيرا رحل الشيخ بأهله وبقيّة طلبته للإقامة بالدار البيضاء، وكان ذلك أواسط 1341هـ 1922م وقد ودعه فضلاء سكان أبي الجعد وداعا حارا، هذا والشيخ في سفره فما أن تراءت له معالم الدار البيضاء حتى وقف به جواد تلاوته القرآن الكريم عند قوله تعالى: «أنت ركون فيما ها هنا أمنين في جنات وعيون...» الآيات «وتفاءل

(8) من مسودة مؤلف مخطوط للشيخ الدار الكتاني أسماء (طبقات الكتانيين) قال... سامحه الله... عن شيخنا ما يلي:

ترى مدينة فاس واسطوطها بتلازمته وإخوانه، وصار يفرّهم بجامعة القرويين وفي الرواية الكبرى الكتانية، وفيها هناك سنوات، وكان فيه بدوية، إذ علمه لم يتحضر ثم اعتنق المذهب الزهري، ونسي ما كان يفرّو من المذهب الصوفي وتبرسه مؤلفات أئمنه، وانقلب رأسا على عقب، ثم تغيرت أحواله وانقلبت عادته، وله في حلقه شؤون، نسأل الله الثبات آمين.

الشيخ خيرا، فكانت فعلا الدار البيضاء آخر مطافه، وحيث استقر بها مقامه حتى وفاه الأجل المحتوم، وبحلول الشيخ وجد سكان الدار البيضاء قد استبدروا الحق، وأستقبلوا الباطل إلا من عصم الله وقليل ما هم، فالباحث بينهم عن أهل السنة كمن يبحث عن عنقاء مغرب، فقد زين لهم الشيطان أعمالهم وافترقت نحلهم بين أهل الزوايا، والأضرحة وسدنتها، وعكفوا على عبادة القبور والتقرب إليها بالذبائح ونذر الندور، فمن تيجاني إلى درقاوي إلى كتاني إلى ناصري إلى عساوي إلى حمدوشي الخ...

أما ضريح بليوط فهو محج الجميع، وكل وارد على الدار البيضاء لا محيد له عن زيارته لطلب ضيافته، وقس عليه ضريح سيدي عبد الرحمن «مول المزم» على الشاطيء، وضريح للاتاجة وسيدي علّال القرواني وأبو الأكباش... الخ وغيرها من الأضرحة المنبئة بين أحياء المدينة وفي أراضها كضريح سيدي مسعود وأحمد بنينشو، والأمر لم يقتصر على عامة الناس، فحتى الأئمة أدعياء العلم لم يشذوا عن الحالة تلك، فما منهم إلا طرقي أو دعي للصوفية، أو متقاذ لأدعياء الولاية والصلاح أو متمسح بالأضرحة. فما كان من الشيخ إلا أن دعاه وأجب الدعوة إلى السنة، فشمّر عن ساعد الجد، وأطلق لسانه في المجالس بإرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، وهو التوحيد والسنة المحمدية، وبين للناس أن سؤال أهل الأضرحة العطاء هو شرك بالله، ومخالف لوحدايته وتفرده بالمنح والعطاء، وسفّه أحلام من يطلب من ميت بركة، وعزا إلى أهل الطرق والزوايا تفرقة المسلمين إذ لحزب لإحزب الله، ولاورد إلا ورد السنة النبوية، وقد بدأ عقد مجالسه من زاوية إلى أخرى، فكان يطرد شر طردة من إحداها لآخرى، وأخيرا قر بمجالسه أول الأمر بجامع ولد الحمراء وهو المسجد المواجه للميناء، ومنه إلى جامع الشلوح - كما يدعى - وهو بوسط المدينة القديمة، ثم الجامع المحمدي أخيرا، وقد جرت عليه الدعوة هذه أن تألب عليه المتدعة وأهل الضلالة، فناظرهم وأخسرهم بحججه وأرائه الصائبة، ولما أخذ الحق يظهر بين الساكنة اجتمع على الشيخ خلق كثير ممن أقتنع بدعوتهم، فاستضاءوا بنور العلم والهدى، وصفاً توحيدهم وصح إيمانهم.

وكعادة الشيخ فلم يكتف بمجالس الوعظ والإرشاد التي يخصص بها عامة الناس، بل عمد إلى تأسيس مدرسة علمية خصص لها مسجداً اقتطعه من دار سكناه، فأوى إليه العديد من طلاب العلم من ساكنة البيضاء ومن آفاقين، وكان الشيخ يقوم بمؤونة الأفاقين منهم، وجعل نظام الدراسة على غرار جامع القرويين، فكان يعقد مجلساً لكل علم من العلوم، فدرّس مختصر الشيخ خليل، وجميع الجوامع لابن السبكي، والتلخيص في علم البيان والمعاني والبدیع، والزرقانية، ونحفة ابن عاصم، ومقدمة ابن خلدون ونخبة الفكر لابن حجر، وعلم العروض، والمنطق، ومقصورة ابن دريد، وألفية ابن مالك وغيرها، وقد أناب عنه ابنه البكر العلامة الأديب سيدي أحمد في التدريس للمبتدئين من الطلبة، بما يتناسب ومستواهم الدراسي ولم يطل بالابن الأمر حتى اختاره الله إلى جواره. ولما تكون لديه بعض الطلبة عن علا مستواهم العلمي انتدبهم لعقد محاليس التدريس لمن دونهم، ولما ضاق مسجد الشيخ بحلقات الدروس استعان في ذلك بجامع الشلوح وهو أقرب المساجد لسكناه، فكان إذا دخل المرء إلى الجامع وقد اعتقدت به حلقات الدرس في كل زاوية بحسب مكانته في جامع القرويين مصغراً، وهو وصف كان يبدوم الصحافة الأستاذ زياد قد أطلقه على مدرسة الشيخ.

وسارت الدراسة على هذا المنوال، فتخرج على يده كثيرون عن سيأتي ذكرهم، وكان ممن نبع من أبناء الشيخ، الابن الفقيه الحاج الحسن، والذي تولى بدوره عقد حلقات التدريس، أما ما كان من حلقات التدريس لعامة الناس فقد أفرد لها الشيخ وقتاً مناسباً، إذا اختار لها مابين العشاءين حتى يكون العامة متفرغين من أشغالهم اليومية، وقد قسم أيام الأسبوع بين تفسير القرآن، وصحيح البخاري، ومختصر خليل وغيرها، وكان في تدريسه للعامة يلتزم اللهجة العامية وتبسيط المسائل المعقدة حتى تصبح في متناول فهم الجميع.

ومن حرصه على أداء هذه الرسالة السامية، كان نشاطه وراحته في المثابرة على الدرس، من غير أن يضييه ملل أو فتور، ويحض طلبته على إغتمام فرصة شبابهم حتى لا يضيع العمر سدى، وإنتهاز فرصة الدرس حتى لا يفوتهم الركب. وقد نُصِبَ خطيباً

للجمعة بالمسجد اليوسفي منذ تدشينه، فصلى الجمعة فيه أحياناً بحضور السلطان المولى يوسف، ثم بالسلطان سيدي محمد بن يوسف، ودام الشيخ خطيباً به قيد حياته، ثم تولاه ابنه الحسن إلى أن وافاه الأجل، فتولاه صهر للشيخ إلى أن أقمده المرض أخيراً استقال.

سعة معارفه ومناهجه في التدريس

كان الشيخ عالماً مشاركاً، واسع الإطلاع في مختلف العلوم الإسلامية، وعلى حظ مهم من العلوم الحديثة، وله باع طويل في أساليب توصيل المعلومة إلى أذهان المتلقين، فهو في تدريسه ينهج أسلوباً تشويقياً، إذ يخاطب أفهام السامعين بما يسهل أعقد المسائل ويجعلها سهلة الاستيعاب، ولا يعتمد السرد المسترسل لمسألة ما كما وردت في كتب الأولين، بل يتناولها بالبحث والتحقيق فيعرض حجج النقل ولا يهمل حجج العقل، فيثير السؤال ويتناوله بالجواب وفيه إثارة للسامع حتى ينتظر الحل، وبه يبقى السامع مشدوداً للدرس، ومع الأيام يتكون لدى المتلقي ميزان عقلي يقيس به أي مسألة عارضة ليستنتج لها الحل، ولن يكون الا صواباً في الأغلب، وكان الشيخ يقول عن هذا الأسلوب أن جميع شرائع الإسلام معقولة المعنى، ويستدل لكل منها بحجج منطقية. كما كان في مزاجته بين النقل والعقل يقول بأن النقل حجة المسلم على المسلم بينما العقل حجة الإنسان مطلقاً على الإنسان، وبهذا الأسلوب تكون على يد الشيخ نواع من العامة لا يقرأون ولا يكتبون، ولكنهم يعجزون غيرهم عند المناقشة الشفوية، فكم منهم أعجز علماء مقلدين لا يحددون عن المذهب الواحد. أو طريقتين في معتقداتهم الفاسدة، وقد كان الشيخ من جهة أخرى محدقاً بالخلافات العليا، إذ يعرض آراء أئمة المذاهب وحتى غيرهم في المسألة الواحدة، فيمحصها ويحقق فيها فيصوب هذا ويخطئ ذاك، وينتهي أخيراً إلى إبراز الأصح وحجته في ذلك، فما كان مقلداً للمذهب، بل كان يقول بالاجتهاد وبوجوبه، ويقول عن أئمة المذاهب أن كلا منهم كان مجتهداً وما تأطير إجتهاذهم بالمذهبية الا عن أرخوا للمذهبية من بعدهم، فلماذا نحن

نسب باب الاجتهاد، فما كان الأئمة رسلاً أو أرواحهم وحياً، ولكن كانوا أبناء رجال ونساء ونحن كذلك، عدا أننا في زمن غير زمانهم، وفي محدثات غيرت حياة الناس من فيهم المسلمون رأساً على عقب، وتولدت عنها قضايا استوجبت التماس أحكام لها، صحيح ان الثوابت الإسلامية، والمحكمات من كتاب الله وسنة رسوله لا يصبغ ان تنالها بالاجتهاد فيها أو التغيير منها، أما ماعداها فللمسلمين مقاييس وأصول الأحكام من قياس ومصالح مرسله، واقتباس... الخ يعملونها في إيجاد حلول لكثير من المسائل الحديثة العارضة، وصلتها الوثيقة بالعلوم الحديثة والمخترعات. ومتغيرات المجتمعات المعاصرة فالعصمة لله ولا عصمة لمخلوق، ومن مالك قوله: «كل من يؤخذ من كلامه يرد عليه إلا صاحب هذا القبر»، فالشيخ في درس الحديث محقق يتهج منهج الرواية فيسرد الرواية عن شيوخي وشيوخهم حتى الصحابي الراوي عن رسول الله، ثم يتناول مافي الرواية من ضعف أو انقطاع أو ما شاكله من علم الحديث، وأخيراً يخلص إلى متن الحديث يشرح المضمون والتعليق عليه والاستنتاج منه، ومن منهجية الشيخ كذلك أن كان يركز كثيراً على العقائد حتى مع عامة الناس، وهو ما عابه عليه بعض العلماء ممن حضر دروسه، معترضين على أن العامة جهال لا حاجة لهم بالمسائل العويصة التي لا يفقهها إلا المتفقهون، وخير للشيخ أن يعلمهم العبادات من وضوء وصلاة، فكان الرد من الشيخ بأن الوضوء يتعلمه المرء من اعتياده على الحضور إلى حيث يتوضأ (الفسقية) خاصة المسجد، وأن الصلاة يتعلمها من مواكبة الإمام في صلوات اليوم الواحد اليوم وغداً، أما العقيدة فمن يعلمه إياها إلا مجالسة العلماء، وهي القاعدة والأساس وإلا فلا اسلام ممن يشرك بالله غيره من البشر في خصائص هي من خلق الله، ومن ينسب قدر الله خيره وشره إلى شيخ من مشايخ السوء الأدعياء المسيطرين على أذهان الدهماء، (قالت الأعراب أما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)، كما كان في دروسه لا يعتمد التطويل ولا السير على وتيرة واحدة، بل ينحو التلخيص وقصر الحصة والتنوع، ودرس اليوم لن يكون غداً، وذلك منه حتى لا يمل المتلقي ويكسل بل يجد تنوعاً في المعارف والأساليب، فلئن كان درس اليوم في الفقهيات فهو غداً في التفسير وبعد غد في العقائد هذا مع دروس عامة الناس بين العشاين، أما مع الطلبة فلن

تكون الدروس متتالية حصة إثر حصة، ولا هي مطولة بل كان يتخلل بين درس وآخر حصة استراحة، أو حصة حفظ واستظهار الأمهات من المتون الفقهية كمختصر خليل ورسالة ابن زيد، والأربعين النووية، وأرجوزة ابن عاشر، وألفية ابن مالك وتحفة ابن عاصم أو... الخ وكانت لطلبته الملازمين خرجات ترويحية المرة بعد الأخرى إلى بعض الأجنحة لبعض المحسنين بأرياض الدار البيضاء، وذلك للترفيه عن الطلبة من عناء الدرس وتجديد طاقاتهم الاستيعابية، عدا ما ينالهم من إنعام وإكرام يوسع عنهم ضائقهم، ويدخل على نفوسهم المسرات والإعزاز بما يلاقونه من حفاوة وترحيب وكرام.

ويطيب لي أن أنقل للقارئ ما قاله ولده العلامة سيدي الحسن في ترجمته الموسعة عن صفات والده الشيخ العلمي وخصائصه الخلقية، قال رحمه الله: هو الإمام العالم الهمام الشيخ المشارك، الدراكة الفهامة المحقق، الناقد الحافظ العارف بالفقه والحديث والتفسير والأصول والبيان والبدیع والمنطق، والتصريف والعروض والهيئة والطبيعة وغير ذلك...

فقد قام عليها قيام المحصلين، وذلل صعابها للطلابين، إذا تكلم في فن لا تحسبه يعرف سواء، بلغ درجة الاجتهاد والإختبار بحيث يرجح ويصحح ويضيف ويضعف ويؤخرى بثاقب فهمه أدم المقول، ويظهر بحفظه العقول، يأتي في دروسه بالترجيحات الشافية، والأبحاث الوافية، والفوائد الحمة، والمستنبطات المهمة، جازي في ذلك مضمار كبار الأئمة، ونصراء السنة، يأتي في تقريره للمسائل بجميع الاحتمالات والوجوه والتفاريح حتى لا يترك شيئاً في نفس السائل إلا أتى عليه وأناط به حكمه، له إكباب كبير على الشر والتدريس والوعظ والإرشاد، لا يفتقر عن التدريس سفراً وحضراً، ولا يفارقه طلاب العلم في الضعن والإقامة، فانتفع بعلومه من لا يخصص من الناس خاصة وعامة، وما من أحد صحبه إلا نال منه على قدر استعدادده وأهليته، ولا يقوم جلسيه إلا عن قائمة بفيده بها أونصيحة يرشده إليها، ناصراً للسنة، سالاً سيقاً قامعا للبدعة، مفوقاً سهمه الصائب في نحور اهلها، ناعياً على الناس تنكبيهم عن طريق السنة

وخصوصاً متصوفة الزمان الذين أقصدوا الدين والعقول، وتحكموا في العباد بماشاءت لهم أنفسهم الخبيثة من الكذب على الله ورسوله وعلى بني الإنسان، وقد جعل الله الحق عالياً على لسان الشيخ فلا يلحق أحد شأوه في ميدان النظر، ولا يطعم مناظره منه ولو بقلامة ظفر، وله في الدبّ عن حوزة السنة المواقف المشهورة، والآثار المحمودة التي لا ينكر فضلها فيها إلا جاحد أو معاند ومن لم يعرفه إلا عن طريق الباغي والחסاد، لأن ذلك شأن الناس فيمن ناصر السنة وقال الحق ولو كان مرا.

وللشيخ مكانة سامية في الأخلاق الفاضلة، فهو حسن الأخلاق، طيب الأعراف، لطيف المحاضرة، جميل المعاشرة، عذب الفكاهة، مليح النادرة، غاية في الجود والكرم، نهاية في الإيثار. انتهى.

أ - العالم المفسر:

كانت للشيخ الذرية بالتفسير والتأويل والمفارقات التي تحكمهما، وعلى اطلاع واسع بعلوم القرآن من حيث قراءته، وأسباب نزول آياته، ومكيه من مدنيه، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وبيانه وبلاغته، ومعانيه وأحكامه، ووجوه تفسيره، وخاصه وعامه، ومطلقه ومقتده، ومجمله ومفسره، وحلاله وحرامه، ووعدده ووعدده، وأمره ونهيه، وما دلالاته بالحققة وما دلالاته بالمجاز، وكان الشيخ محدقاً للمتواتر من الشاذ، وما عده من طرق التفسير وأحكامه مما لا مندوحة عنه للمفسر.

فدروس التفسير لكلام الله العزيز كانت لديه جامعة لأبحاث نفيسة وفوائد جمة، يعتمد فيها السنة فإن لم يجدده رجع إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، وتفسيرهم يعتبر مرفوعاً إلى الرسول عليه السلام، أو يرجع إلى إجماع الأمة على تفسير أو تأويل، فهو يعرض أقوال المفسرين فيضعها في ميزان البحث فما صحّ فذاك وما لا فلا، فكم له من معارضات للسيوطي والضاوي والنيسابوري والحاتمي وأضرابهم من المفسرين، وكذلك هو مع المفسرين القدامى كابن جرير وابن كثير والطبري والزمخشري، وكم له من بحوث في تفاسير المفسرين المعاصرين كالطططاوي والشيخ رشيد رضا، وهو في تفسيره يشتع على ما وقف عليه المفسرون الجاهلون الذين زعموا أن القرآن لا يفسر إلا بما

فسره الأولون، فقد خرج عن هذا الحرج وأعمل الرأي في تفسيره وتأويله، يقول جل علاه: ((أفلا يتدبرون القرآن)) ويقول: ((كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته))، وتدبر القرآن دون فهم معانيه غير ممكن، فاستنبط واستنتج من أحداث العصر الحديث ما يحللي الكثير من معاني القرآن من غير ريب عن المعنى المراد أو تحميل النص القرآني ما لا يحتمل، كما وقع ممن اشتط في تفسيره تأييداً لغرض يرمي إليه أو سلطاناً يملقه أو لسياسة ينتهجها، كما كان يعارض الجامدين ويحتج على قصور تفسيرهم وجموده من القرآن ذاته بقوله تعالى «وما فرطنا في الكتاب من شيء» وقد لاقى الشيخ عتنا كبيراً من بعض الفقهاء المتأثرين بالخرافات والمؤمنين بالطالع، وذلك أنهم أستمقحوا من الشيخ أن يجرؤ على تفسير القرآن، وهو طالع سيء ينذر بموت السلطان، لكن الشيخ سقّه هذه الترهات والتشاؤمات، ولم تشنه عن الإستمرار في دروسه المتعلقة بتفسير القرآن، وللمثال على أسلوبه في التفسير فقد كان يعتمد التفسير العلمي للقرآن إلى جانب تفسيره اللغوي والمعنوي، فكان إذا وقف - مثلاً - على آية... «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة» ويخلق ما لا تعلمون... فسرّها بالإشارة إلى بعض خصائص علم الحيوان، وإلى المخترعات الحديثة في مجال النقل من سيارات وشاحنات وطائرات و قطارات وسفن، وإذا فسر آية... «(فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على أربع)»... يتعرض لعلم الحيوان، وعن آية... «وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحموا»... يتعرض لعلم الفلك وقد ترهات المنجمين بالقولة «كذب المنجمون ولو صدقوا»، وإذا وقف على آيات: ((فلينظر الإنسان ما خلق...)) فسرّه بتكوين الإنسان في الرحم وأطواره من علم الحياة، وعند قوله تعالى: ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون)) تعرض للغرائز والميولات الإنسانية مما صح من علم النفس، وقس عليه ما لم يقل، وهو في اقتباساته تلك لا يغلو ولا يُغرق حتى لا يُحمّل النص القرآني ما لا ينسجم معه ويخرج به عن مدلوله وغاياته، و حتى لا يزيغ به عن حدوده ويحمّله ما لا يحتمل، فيبدأ درسه - بخصوص الطلاب - بعرض بعض إشكالات الإعراب والصرف والمفهوم اللغوي وقد يطرق معه علم البيان والبدیع لبلاغة القرآن الكريم، ثم يتبعه بأسباب النزول إن

كانت للآيات أسباب خاصة، ومنه ينتقل إلى تحليل المعاني وتبيان فوائدها وأسرارها
جامعا بين القديم والحديث، وبالنسبة للعوام فكان الأهم بالنسبة إليهم هو المعنى، فكان
يتناوله باللهجة العامة أحيانا مع تبسيط المعنى، وللشيخ من المقدرة الابداعية ما
يسقط به أحوال التفاسير حتى تشدهم إليها تصحح في تناول أفهام العامة، وتشوقهم
إلى استيعابها.

وقد استغرق الشيخ في تفسيره للقرآن الكريم بتمامه نحو خمسة عشر عاما، ويوم
ختم تفسير القرآن أقام الشيخ حفلا ضخما في داره، حضره الكثير من طلبة العلم
والعلماء والفضلاء، فألفت خلال الحفل خطب وقصائد شعرية تناولت جوانب
كثيرة من الثقافات، ومن المديح لشخص الشيخ، ومن تناول وقائع مشرفة من جوانب
حياته العامة.

ب- العالم الفقيه :

ومن حيث علوم الفقه فالشيخ كان مبررا في البحث والتنقيب والتفريع والإجتihad،
فكان على اطلاع بالخلاف العالي لا يتقيد فيه بمذهب معين، كما كان يعتمد في
فقه الأحكام آليات أصول الفقه من كتاب وسنة وإجماع وقياس ومصالح مرسلة
واقتياس، مع النظر في مقاصد الشريعة والأهداف التي ترمي إليها، وإلى مآل الإجتihad
أوالفتوى المتوصل إليها، فما كان من الأحكام ينسب للمالكية- مثلا- فإنّه يطرح
أقولهم ثم يعقب عليها بأقوال الشافعية والحنفية والحنبلية، فيعرض دلائل كل مذهب
ويعقد بينها مقارنات ومفارقات ليخلص في الأخير إلى القول الأصح، وإذا لم يقتنع
بدلائل المذاهب الأربعة تلك بحث لدى مذهب الظاهرية وغيرهم، فإذا وجد دليلهم
أقوى وأنسب دعمه وأقنى به، وعلى سبيل المثال نورد هنا قضية فقهية ينطبق عليها
أسلوب الشيخ الفقيه في دراسته للقضايا بعيدا عن التقليد الأعمى، فمسألة تعدد صلاة
الجمعة في عدة أماكن في البلد الواحد لا تقول به المذاهب الأربعة لكن أهل الظاهر
يقولون بجواز التعدد ولا يشترطون ما لشرطه غيرهم، وبالأخص المالكية كإشراطهم
الجامع العتيق في إقامة الجمعة وإنعقادها بالثني عشر مصليا، وإشراط الحرية وغيرها مما

ما أنزل الله به من سلطان، وإلى الظاهرية جتجج الشيخ وألف في النازلة هذه تأليفا أسماها
«اللمعة في أن كل مكان تصح فيه الجمعة»: ولو تتبعنا نماذج المسائل الفقهية التي تناولها
الشيخ بإعمال إجتihad فيها لظال بنا الحال، وليست ترجمة الشيخ موضوعا للتوسع
فيها ولكن لنعطي للقارئ مثلا على أن الشيخ كان فقيها مجتهدا لا يقول بالتقليد،
ويشن حملات شعواء على الفقهاء المقلدين القائلين بعدم جواز الخروج عن المذهب،
ويقولهم بانقطاع الإجتihad، فقد جرد لسانه وقلمه بالإعراض عليهم، فعقد فصلا في
أحد مؤلفاته خصصه لدم التقليد الأعمى ووجوب الإجتihad في كل زمان، وأنه حجة
الله في أرضه، وأن المجتهدين هم خلفاء الأنبياء، (العلماء ورثة الأنبياء)، واستدل
لأرائه بحجج عقلية في فلسفة التشريع باستثناء مبادئ الإسلام وثوابتها التي لا إجتihad
مع نصوصها، وفوق ذلك استقصى الشيخ الكثير من المسائل التي أنتجها المقلدة
للمالكية وهي خارجة عن المذاهب جميعها، كما هو الحال فيما جرى به العمل الفاسي
بإجازة البناء على القبور وزخرفتها وتنويرها بالمصابيح وهو حرام باتفاق أهل العلم، كما
أفتى بحرمة الذبح على الأضرحة وحرمة أكل لحومها، وكذلك عن صحة موجبات
تعدد الجمع، وقراءة القرآن جماعة، وكراه الأرض بالثلث، وبعدم لزوم طلاق الثلاث
في كلمة واحدة وجميعها خروج عن المذهب، وغيره كثير مما يجد فيه الناس حرجا
من فتاوى المقلدين، فقد اشتكى كثير من العاملين عند الفرنسيين أو اليهود -أيام
الحماية الفرنسية- من منعه من الصلاة أثناء العمل، فأفتاهم الشيخ بالصلاة جمعا
جمع تقديم أو تأخير في بيوتهم حسب الحال، بينما أفتاهم بعض المقلدة بمغادرة الخدمة
عند مانعهم وليتوكّلوا على الله فهو رازقهم. وقد ألف الشيخ في النازلة هذه كتابا حافلا
أسماه «المستعتم في رفع الحرج عن المستخدم» أما فتاواه هذه فقد حاز فيها القدر المعلى
وذاع صيته بها فصادفت استحسان الناس، ورفعت الحرج عنهم، ومنها فتواه في أن
طلاق الثلاث في كلمة واحدة لا يعتد به، ويعتبر طلقة واحدة رجعية. كما أفتى في
تحريم الزوج لزوجته بالقول «أنت علي حرام»، أنه مجرد لغو لا شيء فيه أو تلزمه كفارة
اليمن وإلا لطلقت رجعية ولا تحرم عنه بتحريمه هو ولكن بتحريم الشرع كما هو متصوص
عليه في الطلاق.

ومن حيث تفريع المسائل الفقهية، فلا يتناول مسألة ما حتى يأخذ في تفريعها وإسقاط حكمها على الكثير من المسائل المحدثه قياساً على الأولى، ورعياً للمقصد الشرعي والمصلحة المرسلة، وللمثال فالضرورات المبيحة للتيمم وصل في تفريعها إلى ما يزيد عن ثمانين مبيحا للتيمم، بحجيات ضرورات العصر ومحدثاته.

ج- الحافظ المحدث:

كان فريداً في الحفظ والاستدكار وقوة المعارضة، وفي علم الحديث فقد جمع فيه الشيخ بين الرواية والدراية، وكان إلى جانب ذلك حافظاً للحديث وقلماً يذكر حديث أمامه إلا وسق إلى سرده، يسترسل في حلقات دروسه في سرد الأحاديث الواحد تلو الآخر وبأسانيدھا المتصلة التي أجازھ بها شيوخه من المحدثين.

فمن حيث الرواية فهو أوسع اطلاعاً بمصطلحات الحديث، من حيث التواتر، ورواية الأحاد، والشاذ، والموضوع، والمدرج والمرفوع... الخ، فما أن يسمع برواية الحديث حتى يبادر إلى تبيان صحته من عدمه، وذلك بملاحظة الانقطاع بين راو وآخر أو بضعف راو من رواته، أو أنه غير منسوب، أو أن الحديث موضوع، وأنه من الإسرائيلية، وغيره من مناهج دراسة الحديث والبحث في صحته، وله في الرواية فهرست يجمع جميع الأسانيد عن مختلف كبار المحدثين ممن أجازوه، وبعض الأسانيد يقال عنها أنها أرفع سند على وجه الأرض، ويكفي استدلالاً على قوة حافظته أن السارد عليه يملئ عليه الحديث سطراً سطراً فيستظهره الشيخ في قراءة أولى منه فيخطيء في بعض كلماته فيصوبها له السارد، وفي قراءة ثانية يكون قد حفظه عن ظهر قلب، والدليل الأقوى على سعة الحافظة والذاكرة لديه أنه ليلة إحياء ذكرى مولد النبوي عليه السلام يملئ الشيخ في محاضراته لتلك الليلة شمائل الترمذي كلها وبأسانيدھا ويزيد عليها ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وأحمد وغيرهم في شمائل المصطفى، وكان يستغرق في سردها الليلة كلها من عشائنا إلى الصبح، لكن مع تقدم السن أخذ يكتفي بفترة ما بين ثلاث ساعات أو أربع من الليلة المباركة. ولا يفوتني في شأن هذه الليلة أن الشيخ كان يتعرض لتاريخ إحيائها، وأنه لم يحفظ التاريخ أن النبي (ص) ولا الصحابة

من بعده رضوان الله عليهم ومن تبعهم أحياء ليلة مولد النبوي، وإن دولة الفاطميين كانت أول من ابتدعت إحياء الليلة بإذخ الاحتفال، وفشت في كثير من دول الإسلام منذ ذلكم التاريخ، كما كان الشيخ في سرده لما جاء من ذكر لوقائع معجزة عند ميلاد النبي (ص) يقدم لسردها بملاحظات ضعف روايتها والمبالغة في أحداثها، وهذه إضافة أخرى إلى ما هو عليه الشيخ من المحبة المتزنة والمبسوطة لشخص النبي، وما كان عليه من الالتزام بطرق البحث العلمي بما فيه منهج الرواية، وذلك منه حتى لا تزيغ به العواطف الحادة فيكذب على التاريخ والحقيقة وعلى الله تعالى، فيبالغ ويقول في المحبة والتعظيم إلى حد تأليه النبي، وهو ما فعله كثيرون من أدعياء محبة الرسول وروايتهم لأحاديث موضوعة، الأمر الذي تناوله الشيخ في العديد من مؤلفاته وستأتيك أيها القارئ عند تعرضنا لمؤلفاته بالتفصيل. وكان يعتبر الحفاوة بالليلة بدعة حسنة مالم يطعها ما اعتاد عليه المحققون من الغلو والعادات التي يجها الإسلام وليست منه في شيء.

ومن حيث الدراية بنص الحديث، قال الشيخ لا يقتصر على سرد الحديث والتسليم به تلقائياً مالم يعرض نصه على أحكام القرآن وميزان العقل، فما وافقها فذاك وما لم يوافقها فلا، فكم من أحاديث أبرز مخالفتها للشرع الإسلامي، وكم من أحاديث صحح روايتها ودحض النص، أو دحض الرواية وصحح النص، وما ذاك منه إلا لما تعرض له الحديث الشريف من إضافات ومن خُلّق، فكم من أقوال أهل الكتاب وغيرها تسبوا إلى الحديث، وكم من غرائب جاءت على لسان المتصوفة أقحموها في الحديث، وكم من أحاديث اصطنعها ذوو السلطان لتبرير تصرفاتهم، وهي مدعاة إلى التحقيق والتحجيس إذ لا يصح اليقين إلا حيث يكون القطع.

وقد أجازوه كثير من العلماء الأعلام بأسانيد هم المتصلة من راو لراو إلى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم حافظ الحديث النبوي ورواته، ومنها الأسانيد المروية إلى موطأ الإمام مالك أو إلى صحيح البخاري أو صحيح مسلم أو النسائي وابن ماجه والترمذي... ومن شيوخ العلم المحدثين المجيزين للشيخ أبو محمد عبد الكبير

الكتاني، وسيدى أحمد بلخياط، والشيخ أبو شعيب البهلوي، والشيخ أبو شعيب الدكالي والقاضي مولاي علي الدمناتي، وغيرهم من أقطاب المحدثين، وكانت هذه الإجازات مستنسخة ومجموعة في دفتر فهرست ويخط مغربي جميل، فكانت بحق تحفة علمية ومخطوطة نادرة، غير أنه بعد وفاة الحسن ابن الشيخ انتقدناها ولم يثمر لها على أثر في خزانته. وهوالم أحدق معه جميع من أجازوا شيخنا، وكانت إجازات شيوخ العلم قديما شهادة بعالية المجاز وهي بمثابة الشهادات الجامعية في زماننا هذا.

د- العالم المشارك :

لم يكن علم الشيخ قاصر أعلى الفقه والتفسير والحديث بل كانت له دراية جُلَى وباع طويل في قواعد اللغة وعلوم البيان والمعاني والبيد والعروض، وفي علم الأصول والقواعد وله فيها أبحاث مع ابن السبكي ومع شراح ابن عاشر في العقائد، ولم يكن في أبحاثه تلك إلا متصفا، فقد كان يناصر مرة الأشاعرة في رأي لهم ويخطيء المعتزلة وقد يناصر مرة أخرى المعتزلة ليخطيء الأشاعرة كما فعل معهم في قضية الجبر والإختيار، وكما كانت له قوة المعارضة في علم المعقول، فلم تكن قاصرة على الأخذ بالمنقول، فقد كان للشيخ اطلاع واسع بالمنطق والفلسفة الإسلامية وله فيها أبحاث وجولات مع الفلاسفة سيما الفلاسفة الماديين وقد سجل بعضا منها في غير واحد من مؤلفاته، وله أبحاث نفيسة مع علماء الطبيعة ومنها مناقشته لنظرية داروين في أصل البشر. وله أبحاث قيمة في علم الفلك في رؤية الهلال وفي الرد على من قال بإمكانية إتحاد الصوم والإفطار في العالم جميعه، وكذلك في إباحة النظر في النجوم نظرة علم رداً على من قال بالخمرمة، ولا ينكر منه إلا نظر المنجمين أدياء الغيب والتنبؤات، أما التاريخ فقد سس منه بعض ما أرتأه خدمة للحقيقة، وله فيه أبحاث مع الحلبي وابن خلدون، كما له بحث مع بعض الأدياء في المغرب نقى عنهم صحتهم لرسول الله، وقد خاطبت الشيخ في شأن كتابته في التاريخ فأبى أن يفعل، وقد علل امتناعه عن الكتابة فيه، أنه- باديء ذي بدء- يشتغل بالعلم، والعلم حقائق يعبر عنها بكل صدق وأمانة، أما التاريخ فهو شغل الأدياء يتناولونه كما يحلو لهم بالتضخيم والمبالغة والتزيد ووصل المقطوع

وقطع الموصول، وتعلق الكبراء والسلاطين، مما لا يعبر عن الحقيقة الضائعة وسط تلكم الإبداعات الأدبية، وهذا لا يليق بي، فإذا أنا كتبت في التاريخ، فكمن من يطل في أعين عامة الناس إذا بسطت تصرفاته فلن أجعل منه إلا طاعية ومحاربا وقاطع طريق، فما يكون من الناس إلا أن يرجعوني بالحجارة، فالحقيقة علقم مر لا يقبل به إلا الحر من أوتي تحردا من العواطف الحادة ورأيا حصيفا وازنا، وهذا ما أفسد التاريخ الإسلامي الذي هو تاريخ سلطات وليس تاريخ أمة، وليته كان صادقا وناقلا لحقائق تلك السلطات التي يؤرخ لها، ولكن المؤرخين كانوا يصوغون كتاباتهم على الكثير من المبالغات، وقلب الحقائق إما تملقا لذوي السلطان، أو تشويقا للقارىء، وقد طبعوا التاريخ بالإبداع الفني، وليس لسرد الحقائق على طبيعتها، والحقائق على سجايها.

هـ- العالم المجتهد المجدد

كما أن الشيخ لم يكن مقلدا لمذهب من المذاهب ولأمتشدا أومتزما، بل كان على دراية تامة بالخلاف العالي واطلاع واسع بالمذاهب الإسلامية فلا يأخذ بحكم من الأحكام إلا بعد عرضه على القرآن والسنة ثم على آراء الأئمة السابقين، وإعمال المقارنات والمفارقات والتمحيصات فيما بينها ليخلص إلى الرأي الأقوى سندا والأصلح إتخادا، ولا غرو عليه في أن يجد الحق ويتخذه من الشيعة أو المعتزلة أو من أي مذهب مغمورهم في ذلك الحقيقة والحقيقة وحدها، وتيسير الأحكام على المسلمين وتطويرها حسب المصالح المرسلة، ومن مراجعة مؤلفاته يتبين جليا للمطلع ما كان عليه الشيخ من إجتهدات جريئة بعيدا عن التزم والجمود ومن غير ميوعة أو تفريط في الثواب. والشيخ في تبنيه للإجتهد يعتمد فيه غير ما آية من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ((الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم المتقون)) ويدعونوا سبحانه إلى تحكيم العقل في كل ما يعرض للإنسان من أمثال القول: ((... أولو الألباب)) و((... أفلا تعقلون)) و((... أفلا تفكرون)) و((... لعلمهم يتفكرون)) و((... فتكون لهم قلوب يعقلون بها)) وصحيح أن استنباط الأحكام بواسطة الإجتهد مقصور على غير المنصوص عليها في القرآن والسنة.

فالشَّيْخُ كَانَ يُؤْمِنُ بِعَقْلِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَيُحْكَمُ الْعَقْلُ فِي جَمِيعِ دَرَاثَاتِهِ وَمُنَاقَشَاتِهِ لِلْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَالْمَقَوِيَّاتِ، وَيَلْتَزِمُ فِي اسْتِنْبَاطِهِ لِلْأَحْكَامِ أَسْسَ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ، مِنْ أَنْ دَفَعَ الْقَضْرَ مُقَدِّمًا عَلَى جَلْبِ الْمَنَافِعِ، وَمِنْ سَدِّ ذُرَائِعِ الْفَسَادِ، وَمِنْ رَفْعِ الْحَرْجِ فَالضَّرُورَاتِ تَبِيحُ الْمُحْظُورَاتِ، وَمِنْ أَنْ الْأَصْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْإِبَاحَةُ، وَأَنْ الْأَصْلَ فِي الْإِنْسَانِ الْبِرَاءَةُ، وَعَلَيْهِ مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّاطِبِيِّ فِي قَوْلِهِ: (... حَيْثُمَا وَجَدْتَ الْمَصْلَحَةَ فَتَمَّ شَرَعُ اللَّهِ) وَعَلَيْهِ كَذَلِكَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ الْجُوزِيِّ فِي قَوْلِهِ: (... إِذَا ظَهَرَتْ أَمَارَاتُ الْعَدْلِ وَأَسْفَرَ وَجْهُهُ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ فَتَمَّ شَرَعُ اللَّهِ وَدِينُهُ)

وه المعلم المدرّس:

ولتقريب الرؤية، وإتخاذ كلية تنطلق منها إلى الجزئيات نقول عن الشيخ أنه خلق معلّمًا ومات معلّمًا، فكان منذ نعومة أظفاره إلى حين لقاء ربه لم يغب بالتعليم بديلا، ودليلنا على ذلك تقتصر فيه على ذكر عروض بديلة لم يقبل بها الشيخ، ولا رضى بها، فقد عرض عليه الشيخ أبو شعيب الدكالي يوم أن كان وزيراً للعدل خطة القضاء فأبأها الشيخ، ويعتد له الوزير بالتعيين عدلاً موثقاً محتجاً على الشيخ بقوله تعالى: «ولا يضار كاتب ولا شهيد»، فكان جواب الشيخ ولا هي، فما خلقت إلا معلّمًا، وبالإرشاد والوعظ والدعوة إلى السنة ألقى بها التعليم الحكيم، وكذلك كان مع أبنائه فلم يغب لهم بغير التعليم بديلاً وهذه واقعة أخرى جرت بينه وبين ابنه الحسن رحمه الله، إذ علم الشيخ بأن ابنه المذكور بعث سرّاً يطلب ولوج سلك القضاء إلى وزارة العدل، فأرسل يطلبه الحضور وهو مغضب، وواجه بما فعل وخيره بين الرجوع عن طلبه أو مغادرة داره، فما كان من الحسن إلا الإذعان وطاعة الوالد، وليس من أبناء الشيخ - قيد حياته - من اتخذ أي حرفة غير التعليم، وبعد وفاته وأمام اضطراب وضغط متطلبات الحياة احترقوا غير التعليم.

وكان الشيخ في تدريسه يقسم برنامجه إلى قسمين، ففي النهار يعقد دروساً في مختلف الفنون للطلبة، ويساعده في ذلك نبعاء طلبته يعقد حلقات التدريس للمبتدئين، وفيما بين العشاءين كان يعقد حلقات دروس الوعظ والإرشاد بخصوص

عامة الناس بجامع الشلوخ وجامع ولد الحمراء، وجامع السوق بالمدينة القديمة، وبالجامع المحمدي بالمدينة الجديدة، ويقوم بخطبة الجمعة بالجامع اليوسفي منذ تأسيسه، وكان في دروس الوعظ والإرشاد مابين العشاءين يعمل على تنوير عقول العامة بالسنة النبوية الصحيحة، ودعوتهم إلى نبذ الخرافات والتزهات والضلالات وعبادة الأضرحة واعتناق الطريقة، فيشبهها حملة شعواء على أهل المنكر دون هوادة وكان أسلوبه في دروسه تلك حكيماً وطريقته منهجة ومشوقة تشد إليها المتلقي، فلغة الدرس لعامة الناس بسيطة تغلب عليها اللهجة العامية، والغريب أن كان يسهل صعب الأفكار وينزل بها إلى مستوى سامعيه حتى تصبح في متناول مداركهم وأفهامهم، وهو ما تبع معه كثيرون من العوام ممن لازموا دروسه حتى أصبحوا يذكرون العلماء ويناقشونهم وهم أكثر من أن تأتي على ذكر البعض منهم فضلاً عن ذكر الكل.

زه العالم المفكر:

ماكان شيخنا كياقي الفقهاء المعاصرين له، وقد كان الطابع السائد اجترار أقوال الفقهاء السابقين على ما هي عليه ودون إعمال للفكر فيها، فلا إجتهد في أحكامها ولا مناقشة لأرائها لكأنها وحى وثوابت دينية لا يحق المساس بها والخوض فيها، فكان الشيخ يرد على من يتساءل من المعارضين أن كيف يجروا شيخنا على أن يرقى لمكانة مالك... و... فيقول أن مالكا وغيره من الأوائل أبناء امرأة ورجل وكلانا كذلك. أما شيخنا فقد ذهب بعيدا في مناقشة أي كان من المذاهب والأعلام السابقين وأعمل في تحييص الأحكام والآراء منهجية تعتمد البحث في صحيح السنة من حيث الرواية والنص والمطابقة للقرآن ومسايرتها لأحكام العقل والمنطق، وحاجات المجتمع وتطوره، والأهداف الشرعية من الموجبات ومن المحرمات، فيخلص منها إلى إجتهدات تنبني على أسس صلبة من العقل والنقل حتى لا يشتط أحدها على الآخر، ولم يقع بإعمال فكره فيما سبق من أحكام الشرع، بل تجاوزوه إلى مناقشة أفكار معاصرة من أمثال فكرة النشوء والارتقاء لدى داروين، وفكرة الشيخين رشيد رضا وعبد في أصل أن البشرية غير مقصورة على آدم، وفكرة خلود الجنة والنار، ومناقشة أفكار محمد خالد في كتابه

لكيلا تخرثوا في البحر، وله أبحاث في العقائد وعلم الكلام وفي الشورى في الإسلام وفي مقارقات القانون الوضعي للتشريع الإسلامي، وهي بحق من الفلسفة الإسلامية. كما أن له مناقشات للفكر الشيوعي تخللت بعض مؤلفاته. والخلاصة عنده أن أحكام الإسلام معقولة المعنى، وهادفة لخلق مجتمع إسلامي متميز، وليست تعبدية فقط

ح- العالم المذهبية:

أمام الجهل المطبق بالسنة النبوية الحققة حتى بين أهل العلم، وقد فشت الطريقة، وعمت المعتقدات الفاسدة، فكنت لا تجد بين عامة الناس ولا خاصتهم إلا طريقاً يعتقد في مشايخه التصرف والحوار والبركة والكرامات... إلخ، وأما الفقهاء فنادراً ما تجد من بينهم من لا ينتمي لطريقة من طرق المبتدعة الضالة المضلة، وحتى من اشتهر منهم بالدعوة إلى السلفية والسنة الصحيحة كانوا يسالمون ولا يجاهرون بالإستنكار⁽⁹⁾، على خلاف ما كان عليه شيخنا من الصراحة في مناهضة مشايخ الطرق وسدنة الأضرحة دون مهادة ولا مهادنة، فكان الزم من يعتنق بحق بجاهلية معاصرة، تحتاج إلى وريث للسنة النبوية الطاهرة من الشوائب والمزاعم الكاذبة، يبشر بها ويدحض عوجبها تلك الترهات، والهرطقات، والكذب على السنة، لاتأخذه في ذلك لومة لائم، وهذا ما تتجدد معه الدعوة إلى الإسلام الصحيح، الخالي من الشوائب التي علقت به من طرف المستغلين للجهل وللغش الذي ساد بين الناس، فزبنوا لهم إدعاءاتهم ومزاعمهم، فكانت الاستجابة لهم من عامة الناس استجابة عمياء. «والظمان يستجيب لأول ساق».

ومن ترهات وهرطقات هؤلاء قولهم: من لم يكن له شيخ فالشیطان شيخه، وقال أحدهم عن نفسه: إنه خاتم الأولياء، وأن النبي عليه السلام يحضر بذاته عند تلاوة مريدي طريقته للأوراد، وقيل عن بعضهم أنه في صلاته وهو بالمغرب يسجد برحاب

(9) قال الأستاذ الدكتور السوسي: وهو مرقري الطريقة... من شيخ من كبار دعاة السنة والسلفية بالمغرب... ويكون مرقري نادراً أحد الفقهاء فيحدث معه عن الشاذلية بوعن مولاي العربي سند هذا القول إلى الشاذلي... وقد لاقت تشا من القارئون الكثير ينتهرون بأن الشيخ عالم السنة منهم

الحرم المكي، وإن الولي يغيب ذا الحاجة في البر والبحر، ومنهم من يبيع صكوك الغفران وقصور الجنة ويوزع الشفاعة في مريديه، ومن غلاتهم من يقول بالإلحاد والحلول، عدا الطقوس التي يقيمونها وهي على خلاف مع شرع الله، وغيره كثير مما لا يصدر إلا من مبرسم أو من يدعي لنفسه ما هو شرك بالله والعبادة بالله.

وبوجهه، كان الشيخ الداعية يجدد لهذا الجزء من الأمة الإسلامية أمر دينها، يدرس في مجالسه ويقوم بالدعوة في سياحاته، ويجادل في مناظراته، ويلاحظ على سلوكيات غيره، كل ذلك بالدعوة إلى سبيل الله بالحسن، فلا يغلف قولاً ولا يسهل أحلاماً، وإنما هي الحجة والبرهان ولخصمه الحكم بمقتضاها، فقد يتفوه المرء بالكفر والإلحاد أو ما يخالف شرع الله، فلا يبادر إلى تقبيح القول وتخطيء القائل، بل يدعو إلى مناقشة ما تفوه به، فيتخذ لذلك وجوها مرقمة أولاً بأول وكلها برهنة وإقناع، ولا تدع المخطيء في آخر المطاف إلا معترفاً بخطئه، ولي رجعة إليه في باب المناظرات.

وقد يتناول الشيخ الرد عن قوله أو سلوك في اقتضاب وفي صورة فكاهية، وللمثال عليه أن سأل مرة قادماً عليه من أي بلد هو؟ فقال أنا (ابن سبعة رجال)، ويعني بها مراکش وهي تضم سبعة أضرحة، فقال له الشيخ لا يا ولدي لا تحرم أمك فأنت لست إلا من رجل واحد، فضحكا وأفتنع المخطيء بقطاعه النسبة المبتذلة. ومرة قدم عليه شخص من دكالة وهم معروفون بالطول الفارع لأجسامهم وكان إذا سئل الدكالي عن نسبه قال: «ولد سيدنا آدم» فلما قالها للشيخ قال فهل نحن أبناء فرد داروين فكلنا من آدم. وكان إذا ما قدم له شخص نفسه على أنه الشريف المولى فلان رد عليه كلنا أشرف من سلالة النبي آدم وهو أبو البشر ومن بعده نوح عليه السلام الأب الثاني للبشرية بعد الطوفان. كما كان يطبق حرفياً القاعدة الأصولية الحكم على الشيء فرع تصوره، فكان مثلاً لا يبادر بالتخطيء أو التكفير لأول وهلة بل يناقش القولة من قضية لأخرى إلى أن يصل بها إلى الحكم، وقد يترك مخاطبه يستنتج الحكم بنفسه، وللمثال حكم قائل بالشيوعية أو مناصرها يناقش أفكاره فكرة فكرة مناقشة عقلية ونقلية نقوده إلى استنتاج الحكم الشرعي دونما مجرد الرمي بالكفر، ومن الأمثلة كذلك أن كم من عبادة

الأضرحة ومعتكفها أخرجهم من ظلماتها إلى نور العلم والسنة، وكم من جازم بمعتقد فاسد خلصه منه بسيط من المناقشة الهادئة والمحااجة المقتعة، وفي هدوء ودون تسفيه أوتشئج، وقد حضرت مرة وقد تجمع عليه خلق كثير بقبيلة من قبائل زابان الأطلسية في زيارة من زيارته لها، فاستفناه أحدهم مستفسرا عما يقوله في الولي الصالح سيدي فلان الذي عبد الله أربعين سنة في غابة، فما كان من الشيخ إلا أن صمت بضع ثوان، ثم عقب على السائل بأنه خلال صمته هذا استعرض القرآن الكريم بخاطره فلم يجد فيه إلما يعمر غابات الله ولكنه وجد قوله تعالى: «إنا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» وصمت، فانبى أحد الحاضرين قائلا مادام لا يوجد في القرآن من يعمر غابات الله فإنما يعمر غابات الله وحوش الله، فعقب عليه الشيخ، قلها له انت ويعني به السائل، فلما اطمأن الشيخ من عدم إغضاب السائل، تصدى لمناقشته فقال إن شيخك هذا إما أنه متزوج أو أعزب، فإن كان زوجا فلن ترك الزوجة وقد حرمتها وتربيتهم ونفقتهم... فشيخك هذا ارتكب جرائم في حق بيته، وإن كان أعزب فمن حمله على التبتل وحرمان نفسه من المتعة الحلال، عدا أن اعتزاله هذا من الرهينة وهي محرمة في الإسلام» لارهبانية في الإسلام»، ثم هو أمر آخر فالعيش في الغاب بين الوحوش وفي العراء قد يسبب للشيخ مرضا وقد تفترسه السباع، وهو بذلك يكون في حكم من ألقى بنفسه إلى التهلكة ومات محاربا، وقس ما قيل على من لم يقل... فافتنع السائل واستغفر الله من اعتقاده الفاسد.

شذرات من مناظرات علمية

كان الشيخ قوي الحجة، طويل النفس في المجادلة والمناظرة، وكان يتحاشى الأغلوطن والأسئلة التعجيزية، والفسطة في المحاجة، ويعتبرها بعيدة كل البعد عن أخلاق العلماء ورزانتهم، وهي ديدان من وصفوا بالطيش وكل غرضهم منها هو إفحام مناظريهم، وتعجيزهم والهزء بهم أمام الحضور. فكان يناقش ويجادل ملتزما أدب

المجادلة، فلا يغلظ في القول مهما كان خصمه خاشئا وتحاملا، ولا يتنجح بعلمه مهما كان متصرا، وما كان غرضه إلا الوصول إلى الحقيقة له أو عليه، وليس يبيد بأن كان على قوله الشافعي رضي الله عنه: «ما نظرت أحدا إلا وأحببت أن يظهر الحق على يده» وإن ما أطرحة من تنف من مناظرات في التالي لا أحقق بكلية كل الإحداق، ولكنني اقتصر عن بعض منها، وفي كل مناظرة منها على جانب من جوانبها فقط بما أتذكره، وذلك لإعطاء المثال فقط، وإلا لكان لذكر كل مارج بالمناظرة الواحدة دفئا كتاب لجمعها، سيما والمناظرات تلك غير مدونة حتى يرجع كاتبه إلى نصوصها الكاملة. فإليكموها كما تيسر.

1- مناظرة أجنب من هيئة تناسخ الأرواح:

دعي الشيخ مرة من طرف عائلتين يهوديتين هما «لاريدو، وبتو» أصلهما من طنجة، وكانا أكبر التجار الموزعين للشاي والسكر يومذاك من الدار البيضاء إلى جميع أطراف المغرب، وقد حضر ضيفا عليهما علماء من سويسرا ومن هيئة تقول بتناسخ الأرواح، بمعنى أن الروح عندما تزهر من هالك تحل في مولود غيره عن يكون اسمي منه وأعلى رتبة، ولا تحل فيمن هو أدنى، وما كانت دعوة الشيخ إلمناظرة أولئك العلماء السويسريين، وقد تناولت العديد من المواضيع ومنها وأهمها هو موضوع المعتقد الرئيسي لثلكم الهيئة. فبعد أن ترجم أحد اليهود عن أولئك العلماء معتقدهم في التناسخ وكان المترجم واسطة الخطاب بين الطرفين، أجاب الشيخ بأن تساءل - مسلما معتقدتهم تسليما جدليا - عمن جاء من عظماء البشر بعد عيسى ويفترض أنه أسمي؟ وعرض عليهم الشيخ أسماء من العظماء منذ فجر التاريخ إلى الزمن المعاصر، فأنكروا أن يكون هؤلاء العظماء في مرتبة عيسى وبالأحرى أن يكونوا أسمي، فكان التساؤل الثاني من الشيخ وعمن يكون المسيح جاء بعده يدعو إلى دين ويقول بأنه موحى إليه وله سمة الأنبياء؟ فأحرجوا وما وجدوا من جواب غير القول بأنه رسول الإسلام محمد، فعقب عليهم الشيخ بالقول فلماذا لا تقولون بأن روح المسيح حلت في محمد، وتؤمنون به كما تؤمن نحن بالمسيح عليه السلام، وتتوحد ويسود بيننا إلا

حياه والسلام .

وأثناء الحديث قال أحد المضيفين للشيخ أن مارأيه في اتهام المسيحيين لليهود بقتل المسيح عليه السلام، فتصدى الشيخ للجواب، وكعادته مع غير المسلمين ملتزماً في مناقشته منطق العقل فألقى عليهم أسئلة كالتالي :

-تسلم معكم ان يهودا هو من دل اليهود على مكان وجود المسيح فأين يهودا والتاريخ يثبت إختفائه؟ والجواب على الأصح هو أن يهودا أضفى الله عليه صورة عيسى، فالمصلوب هو يهودا وليس عيسى وإلا فأبنه يهودا ؟.

- ونسلم معكم تسليماً إفتراضياً وجدلياً -وحاكمي الكفر ليس بكافر- ان المسيح ابن الله أو ثالث ثلاثة، فتحن - إذن- بين أمرين لاثالث لهما، إما أن الله أمر اليهود أن يقتلوا ابنه، وإما أنه لم يأمرهم بذلك، فإذا كان الله يريد قتل ابنه وقد سخر لذلك اليهود فأنتم إذن تصيرون فضولين وضد إرادة الله، وإما أن الله لم يرد هم قتله ورغمهم قتلوه فلا الله ولا ابنه بأقوى على رد اليهود، وأنتم بذلك تنسبون عجز الله عن حماية ابنه وعجز ابن الرب عن الدفاع عن نفسه، وبالتالي فالنتيجة ان إعتقاد المسلمين هو الأصح، وذلك بأن الله رفع إليه المسيح وحماه من بطش اليهود، ثم توفاه بعد، والغريب انكم على كراهيتكم لليهود وإعتقادكم بصلبهم للمسيح، قد ولكم تسعى الى جمع شتاتهم من آفاق العالم لتوطنهم وتقيم لهم دولة بفلسطين، البلد الإسلامي الذي أوى اليهود طوال قرون ولم يطردهم ولا شردهم كما فعلت أوروبا معهم خلال حقبة من التاريخ، والمناظرة كانت قبل وعد بلفور بتقسيم فلسطين. وهكذا فقد أعجب أولئك العلماء السويسريون بنسق المناظرة وقوة الحجة لدى الشيخ، ويعودتهم الى سويسرا نشروا حوار المناظرة في صحافتهم، وبعثوا بنسخ من الجريدة النشرة الى المضيفين اليهود، وقد أطلعوا الشيخ على ذلك، ولأسف أن الوثيقة تلك لم يحتفظ بها مكتبة الشيخ.

ومن مناظراته ماجرى بينه وبين أهل العلم، وأدعياء الصوفية، ومنها على سبيل المثال لاخصر المناظرات التالية، فلما كان الشيخ بمقدمه واستيطانه بالدار البيضاء قد

اشعلها حرباً شعواء على الضلالات والخرافات، بما فيها الأضرحة والزوايا، وأدعياء الولاية، فقد عانى الكثير مع من اشربت قلوبهم تلك الترهات والهرطقات وهم كثيرون، فكم كادوا للشيخ وكم استقدموا من أدعياء الصوفية لمناظرته وإفحامه، وبالتالي إسكات صوت المناصر للسنة والمنافع عنها والمقنع للطرقية والابتدعات الفاسدة وسأني على بعضها وبعض ما راج فيها فقط.

2 - مناظرة أقطاب مبتدعة الطريقين :

أ- الفقيه سليمان الدكالي : وماكان في محاربة المبتدعة لشيخنا ان أستقدم احد أساطين الدار البيضاء الفقيه سليمان الدكالي وكان مغرقاً في الصوفية، فاستدعى الشيخ لوليمة عقدها رغبة في انتصار الفقيه الصوفي، فابى فقيه الصوفية يسرد كرامات نسبها لبعض الأولياء، ثم سأل الشيخ عن رأيه في ذلك، فأجاب :

-ان كل كلام فيه المقبول والمردود، وكل فعل كذلك إلاكلام من لا ينطق عن الهوى

- وإن الأولياء قسمان: أولياء الرحمن وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وأولياء الشيطان وهم من يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً.

- وان الكرامات كذلك قسمان، وهي مشروطة بأن تكون على وفاق مع الشرع . وليست خوارق، ولا تنصل الى حد المعجزة وإلا لكانت مردودة، ثم جرى بينهما عرض لأذكار المتصوفة، فكان رد الشيخ أن منها ماهو مخالف للشرع لما فيها من تعبير عن الحلول كقولهم في رسول الله روح الهوية وعين الأعيان، فما كان من الفقيه إلا ان تعود بالله من ذلك وكأنه استيقظ من سبات، وخاطب الشيخ متصفاً أنه على مذهب الشيخ، وأنه كان يعتقد منه الإنكار على الأولياء والكرامات اطلاقاً، فافترقا على وفاق بعد ان كانت المناظرة في أولها من الفقيه الدكالي حادة.

ب- مناظرة الشاعر الأديب القاضي الشنكيطي :

وقد وفد على الدار البيضاء القاضي الشاعر السيد الشنكيطي، وكان قاضيا بوادي زم ثم باشا بتارودانت، فوجدها مناهضوا دعوة الشيخ فرصة للإجهاز على أفكار الشيخ ودعوته التي لا قبل لهم بها، فاستدعي الشيخ لوليمة أقيمت لأجل ذلك، وحضرها قاضي الدار البيضاء الأوجدهم الفقيه السيد علال الشرايبي وجماعة من أعيان الدار البيضاء، وكان موضوع المناظرة القول بالوحدة والحلول وهو مذهب الحاتمي. فما كان من الشيخ إلا القول بأن اعتقاد ذلك كفر لأنه مصادم للكتاب والسنة وإجماع الأئمة، وذكر فتاوى علماء الإسلام في كفر أهل الحلول والاتحاد، وأنهم أكفر من الذين حصروا الألوهية في ثلاثة.

فلم يذعن القاضي لذلك، وعقب بأنه لا ينبغي الاعتراض على الحاتمي، فأجابه الشيخ إذا لم نعتز على كبريتك الأحمر الحاتمي لزمنا الاعتراض على الشريعة، فأبي الاعتراضين نختار، واستدل الشيخ على القول بكفر القائلين بالوحدة والحلول بأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن أبي زرعة والحافظ ابن حجر وابن دقيق العيد وتقي الدين الفاسي وغيرهم، وقد جرت امتداد النقاش بينهم إلى ذكر الحسين بن منصور

الحلاج

فأثنى القاضي الشنكيطي على الحلاج .

فعارضه الشيخ بأن الحلاج قتل بسيف الشريعة، وإن ما صدر منه يعد كفرا صراحا، فأنبرى الشنكيطي يصف الحلاج بالولاية وإن الله فيه تجليات، وواجه الشنكيطي الشيخ بالقول إنه يخاف على الشيخ من تصرف الحلاج فيه.

فأجابه الشيخ: فأين كانت تجليات معبودك الحلاج وتصرفاته ولم تتجلى فيمن أعدموه في باب الطاق وقطعوه إربا إربا: ووجه الشيخ اللوم للشنكيطي على إعتناقه مذهب الوحدة وأنت قاضي المسلمين.

-فأجاب مغضبا قائلا: بل قاضي الكافرين. وقد افرق الجمع على مناصرة

القاضي الشرايبي للشيخ، وعن إعتذار الشنكيطي بالقول إننا نحن الشناقطة في طبعنا حدة وذلك لحرارة جو بلادنا.

ج- مناظرة القاضي الحاج أحمد الأزموري :

وحصل أن حضر الشيخ مرة إلى دار الفقيه الحاج أحمد الأزموري وكان قاضيا بمدينة ابن أحمد من قبيلة امزاب، وكان حاضرا ساعتذاك جماعة من الفقهاء، ودار الموضوع حول الأولياء وكراماتهم وحول رؤية النبي يقظة، وكان ذلك معتقدا الأزموري ويستدل له بأقوال السيوطي والشعراني وأضرابهم من غلاة المتصوفة، ورغم وجود الشيخ ببيت الأزموري فلم يخف أمانته العلمية في الذود عن حياض السنة، فأنبرى الشيخ منكرا لتلكم الترهات ومستدلا على مخالفتها للشريعة والمنطق العقل والواقع، وأنها مجرد تحريف وتوهيم، فحصلت بين الطرفين مشادة عنيفة، وما إن عاد الشيخ إلى بيته حتى باشر الكتابة والتأليف ردا على معتقدات القاضي في شأن الولاية والكرامة ورؤية النبي يقظة، والمرجع إليه عند ذكر مؤلفات الشيخ تحت عنوان «لطف الله مع هبته في الرد على قاضي مزاب وشيعته»

د- مجالس الشيخ في الرد على الفقيه الراضي الملقب بالحنش

ولما كان الطريقون بالدار البيضاء لم يشقوا غليلهم في الشيخ، أوفدوا وفدا منهم إلى فاس وهي موطن علماء القرويين، وعرضهم في ذلك القدم ببقية صوفي يدافع عن التصوف وأهله في وجه العدو الذي غزا مدينتهم فغير أفكار ساكنتها، وأهان أضرحتها، وحط من شأن أوليائها، فأتوهم بالصوفي السيد الراضي الملقب بالحنش، واكثروا له دارا رقيقة واكتتبوا له بأموال طائلة، وموازاة مع مجالس الشيخ عقد الفقيه الراضي مجلسا له اجتمع عليه مقدموا الطريقة وسدنة الأضرحة وأتباعهم من الدهماء، وتناول فيه شرح حكم ابن عطاء الله، وأعلن في مجلسه أن من لم يقرأ حكم ابن عطاء الله فهو ناقص الأيمان، وحفظ عنه كذا إن الرفاعي باع قصرا في الجنة، وأن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان يمشي فوق الماء... وأن... وأن... وكلما بلغ الشيخ خبر ما قال الراضي في مجلسه اليوم إلا وتصدى له الشيخ في مجلسه لليوم التالي بالرد الصارم، فكانت

مناظرة غير مباشرة، وكان من بين ردود الشيخ أن رتب على الراضي بنقص إيمان من لم يقرأ حكم ابن عطاء الله أن الصحابة والتابعين هم سادات المؤمنين ناقصو الأيمان لأنهم لم يقرأوا الحكم ولا عرفوها، وأين قراءة الحكم في حديث الأيمان والإسلام، وأطال الشيخ في الرد عما لم أحفظه عنه، وللشيخ مؤلف حافل اسماء: «توفيق الله في الرد على حكم ابن عطاء الله»، ومن بين الردود كذلك قضية بيع الرفاعي لقصر في الجنة، فتساءل الشيخ هل الرفاعي أحسن من الرسول والصحابة، ولم يثبت عنهم أن أحد هم باع لينة في الجنة فضلاً عن قصر الرفاعي، وإن البيع لا يصح، إلا إذا كان المثلث معلوماً محدداً، فالمبيع مجهول الحدود والقدر والثلث والصفة وغير مقدور على تسليمه، وهو بالتالي بيع الفضولي لما يستحيل. وهكذا استمر التراشق في حرب غير متساوية، حرب الباطل للحق الذي يكتب له النصر من عنده، «فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» قل جاء الحق وزهق الباطل». وهذا كل ما في وسعي جمعه من الردود وما أكثرها. فانقضت الجموع عن الفقيه الراضي، فما وسعه غير المغادرة وهو يجزأ أذيال الحية والرجوع من حيث أتى.

هـ- مناظرة الفقيه سكيرج قاضي سطات:

وكان صيت الشيخ وشهرته تجاوزت الدار البيضاء إلى غيرها من أصقاع المغرب وخاصة مدينتي القرويين وابن يوسف وغيرهما من المدن، وبينما الشيخ مرة كان يتواجد في «سطات» المدينة إذ التقاه صدقة قاضيها الفقيه السيد سكيرج وكان من غلاة الصوفية، وبعد تبادل التحية أبدى الفقيه القاضي للشيخ أن كان يتمنى لقاءه والآن جمع الله بينهما صدقة فأخذه لداره، وهناك جرت بينهما المذاكرة التالية وبحضور عدل كان تلميذاً سابقاً لشيخنا.

بلغني أنك تنكر الأولياء، فأجابه الشيخ فكيف لي أن أنكر الأولياء الذين وصفهم الله بقوله ((ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون)) فهؤلاء لا ينكرهم إلا عدو الأيمان، إنما أنكر أدياء الولاية وهي منه براء، وكما تعلمون فإن كل حرفة الوصفة إلا ولها وفيها أهلها والمتحلون لها زورا، والعلماء فيهم العلماء

حقاً وفيهم الأدياء، فما كان من القاضي إلا أن سلم بذلك. فتكلم عدل من عدول القاضي -وقد سبق له أن تتلمذ على شيخنا- وقال لا يساعد القاضي إن الشيخ هذا يعترض على الأولياء، وقد أعترض على قول الفقيه الراضي بأن الرفاعي باع قصراً في الجنة، فقال الشيخ: هذا تلميذنا يشهد علينا «فشهد شاهد من أهلها»، وهو صادق في شهادته، فأخذ الشيخ بيدي وجوه اعتراضه عن بيع قصر في الجنة بالحجج البينة، فافتنع القاضي، لكن العدل كابر وتصدى للدفاع عن الراضي، فعقب عليه القاضي بأن الراضي رجل صوفي ضعيف المدارك في العلم.

-ثم سال القاضي الشيخ عن دار الضمانة وهم يدعون بشرقاء «وزان» يضمنون الجنة لاتباعهم ومريديهم، فأخرج الشيخ في مخالفته للقاضي فما وسمه إلا أن يلتزم أسلوباً حكيمياً تحبب لأي شقاق يتطور معه الخلاف في الرأي إلى مشادة عنيفة، وعلى هذا الموالب أجاب الشيخ بدون حدة وبكل لياقة على أن المسألة خلافية، وأنتم تعلمون أن خلاف العلماء رحمة، فكل من أئمة المذاهب يرى في المسألة الواحدة ما لا يراه الآخر، ومع ذلك لم يحفظ عن أحدهم أن نال من الآخر خلاف في الرأي، وكذلك أنا وانت في المسألة، فانا أقول بأنهم لا يضمنون وإنما الضامن العمل الصالح، وكل منا ذهب مع قول، فاستساغها القاضي على مضض واقترباً معاً بسلام.

و- مناظرة مجموعة من الفقهاء في مجلس واحد

ومرة اجتمع على شيخنا مجموعة من الفقهاء وعن قصد فكان بينهم الفقيه الصنهاجي، والعلامة محمد بلحاج السلمي، والفقيه محمد بن عائشة، والفقيه الحاج المفضل، والفقيه بن اعبود، والفقيه السباعي. وقد أخذ أحد الفقهاء من المذكورين يحكي وهو يقصد الشيخ بحكايته، وبغرض إثارة محتماً بالباقيين، وهم في مجموعهم صوفيون على درجات، فقال أن أحد الأولياء كان يعترض عليه أحد العلماء في مجالسه (إياك أعني قاسمي ياجارة)، فمر الولي بالعالم وهو يؤم الناس في الصلاة فسلمه الولي علمه وقرآنه، بأن أمر صدقة كانت بقرينه أن تأخذ علمه وقرآنه ففعلت، وما لبث أن جاء العالم إلى الصوفي وتاب على يده، فأمر الجريوة بأن ترد عليه ما سلمته منه فتقبأت

ذلك، فارتج شيخنا للحكاية وفظاعتها وتصدى للمعارضة من عدة أوجه كان منها :

-إن السلب والعطاء في هذا المجال من صفات الله وليس بمقدور أحد مهما بلغ أن يسلب الغير علمه، فالعلم ليس متاعاً من الأمتعة المادية المحسوسة

-إن الصوفي هذا على التسليم افتراضاً بالحكاية فقد فعل حراماً حيث قطع على الإمام صلاته وقطعها كذلك على المؤمنين به، وأفسد الصلاة عليهم. « أفرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ».

-وكان من واجب الصوفي هذا أن يلحق الإمام في الفاتحة، ومن السنة أن يلحقه في السورة إن عجز أو أخطأ، ولكن الصوفي لم يفعل ما كان يجب أو يسر

-وان كيف يليق بأدنى المسلمين فضلاً عن قدوتهم أن يأمر جريوة خبيثة بأن تزدرد القرآن الكريم والعلم الشريف وهذا بهتان عظيم، فالقرآن الذي تخشع وتتصدق له الجبال والذي هو أمانة لتقلها لم تتحملها السموات والأرضين، يسوغ لمسلم أن تزدرده جريوة ثم تتقيؤه، فهو من هذا الصوفي ازدراء بالقرآن.

-إن أقبح ما قيل في هذه الحكاية أن صير هذا المبرسم القرآن قيثاً خبيثاً من جوف جريوة خبيثة، وهذا كفر صراح، وقس ما قيل على ما لم يقل.

فما كان من الفقيه الذي طرح الكرامة على سامع المجمع إلا أن أذعن إلى الحق واستغفر الله مما صدر عنه، ولأحد من الحاضرين عقب على الشيخ أو أنكر عليه وكان على رؤوسهم الطير، إقتناعاً ضمنياً منهم برأي الشيخ وخجلاً من اعتقادهم المستحيل الفاسد.

ز- مناظرة الفقيه النوازلي الشيخ المهدي الوزاني:

حصل لما كان الشيخ يستوطن مدينة فاس أن اصطحبه معه الشيخ الكتاني لضيافة في بيت الفقيه النوازلي المشهور الشيخ المهدي الوزاني، ولتقريب الرؤية إلى مدارك القاريء لابد من الإطلاع على واقع مجتمعي تاريخذاك عاشته الطبقة الراقية

من المغاربة، فكما لا يخفى على بصير فمنذ بداية القرنين الأخيرين للتاريخ انعدم الجهاد إلا من معارك محدودة، وبالتالي فبا نعدام الجهاد الإسلامي الحق ينعدم الأسر وينعدم الرق، ورغمهم فقد كان نخاسة بيع العبيد رائجة في المغرب، ومأمهم إلا إفاقة سود اختطفوا من أمصارهم ورحلهم النخاسون للبيع في سوق النخاسة هنا وهناك، فكنت لا تجد داراً لأحد الأرستقراطيين والكبراء والقواد والأغنياء إلا ولديهم مادعومهم بالعبيد والإماء ومن ضمنهم أهل فاس يومذاك والأدهى أن منهم من يملك تلك المحتطقة بالملك. (10)

ورجع بنا إلى الضيافة، وكالعادة فإن مجالس العلماء لانتخلو من مذكرات ومناظرات، وكان مما أثير قضية الرق، والسؤال المطروح أن هل يكون الإسترقاق مشروطاً بسقية الكفر والأسر أم بمجرد الأسر؟ فكان جواب الشيخ الوزاني إن الكفر غير مشروط، واستدل له بقضية أبي هيثم الأنصاري، فما كان من شيخنا إلا أن انبرى للقول بخطأ ذلك، فقال إنه من حيث النقل فالرق لا يصح إلا بشرطي الكفر والأسر في الحرب، وهو ما جاء عن فقهاء الإسلام، وتلك حجة النقل، أما حجة العقل فتساءل الشيخ أليكون من اختطف فتى أو فتاة من فاس قد استرققهما في نظركم إشارة منه إلى مستعبدتي فاس وهم ليسوا إلا مختطفين من الأفارقة السود، ثم عاد لحجة النقل قائلاً: أما الإحتجاج بقضية ابن التيهان فإن العبد هذا الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم «خذ هذا فإني رأيته يصلي» فالعبد هذا قد أسلم بعد السي، ومن أسلم بعد إسترقاقه لا تزول عنه الرقية إلا بعد تحريره. وإلى حد هذا، التفت الشيخ الوزاني إلى الشيخ الكتاني مغضباً وقال «أشكون (من يكون) هذا الرهط؟» وللأسف في لهجتنا العامية مفهوم الخط والإزدراء، فاستساعها الشيخ ولم يرد.

(10) وقال عنه الديبلوماسي الفرنسي للدعوى إيمان ريشيت في رحلته مآثر جنته... أما سوق النخاسة فهناك ثلاث مرات في الأسبوع... حين يعلن الدلالون فتح المزاد، وأغلب الإماء السودوات من السودان، وقد حضر نعرههن للبيع

من حرب الجمود والتزمت إلى حرب الميوعة والتفرنج

كتب الله أن طال حياته جهاد وكفاح مستمر ودون هوادة، وفي اتجاهات مختلفة، فقد كافح بكل قواه الجهل المطبق على البلاد الزايتية، ومازح بينه وبين كفاح المستعمر الدخيل بالسلح وذلك عند مقاومة صادقي الوطنية والحمية الإسلامية لجيوش الفرنسيين المكتسحين للوطن بموجب عقد الحماية.

وكتب عليه كذلك أن يقبده الله لمهمة لا تقل جلالاً ورفعة عن السابقة، فقد وجد الدار البيضاء عند استيطانه لها، وقد توزع طريقو الصوفية وسدنة الأضرحة ساكنتها، فساد أهلها الجهل المطبق بتعاليم الإسلام الصحيحة والسنة النبوية الطاهرة، فأمنوا بالخرافات والخزعبلات، واعتقدوا في البشر ما احتسب به الله وحده لأشريك له، وقدموا القربان للأضرحة، وهجروا المساجد وعمروا الزوايا، وقس على ذلك، فكان على الشيخ لزوماً ومن غير أن يجد مندوحة له عن ذلك أن يواجه وطيس حرب كلامية ومناقشات حادة، وتهديدات وعيد، وسباب قاحش، ووشايات كاذبة على أصحابها يسكتون صوته، لكن هذه المضايقات لم تزد الشيخ الاطاقة ودافعا للمزيد من نشر الدعوة إلى السنة وتسفيه ودحض ضلالات الطريقة، ويذكر هذا بقوله ورقة بن نوفل لرسول الله (ص): ((لم يات رجل قط يمثل ما جئت به إلا عودي)) فقابل الشيخ هذه الاساءات بجلد الصابرين وجسارة الاقوياء بالله، واحتسب ما يلاقه لوجهه تعالى، ودون ميالة ولا خوف من المسيئين اليه، بل وجد لذة في أداء الواجب ومجاهدة الضلالات:

«من راقب الناس مات غماً**** وقاز باللذات الحسور».

وكان ما ينعيه الشيخ على الصوفية انهم كانوا عاملا على تفرقة المسلمين طرائق قديدا.

بدأ ظهورهم في القرن الثاني للهجرة، يدعون اتباعهم إلى الزهد في الدنيا والرهبة،

وأحدثوا -بعد- بدعة الرقص «العمارة» فكان السلف الصالح لهم بالمرصاد. وظهر متكلموهم فخر جواراه وأفكار ما أنزل اليه بها من سلطان من اتحاد وحلول، وصدر من أدعيائهم بأنهم أهل الحقيقة وأن للقرآن ظاهراً للعوام وباطناً لا يفهمه إلا العارفون، ومعناه إباحة المحرمات للعارفين، وتغريها على المحجوبين، وأنهم يعبدون الله لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، وقد أشفى الغليل في ذلك الحافظ ابن الخوزي في كتابه «تليس إيليس» والحافظ ابن عقيل الحنبلي وشيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم وأضرابهم، وقد تكلموا عن صوفية زمانهم وكانوا أخف بكثير من صوفية اليوم، فهؤلاء الأخيرون جعلوا من صوفيتهم وسيلة لجلب الأموال فأثري رؤسائهم من جيوب الدهماء، ويوم أن عصفت إستعمار الغرب بالعالم الإسلامي وجد في أرباب الطريقة خير مساعد له، وعملوا في خدمته وأدى بهم الأمر إلى الإحتماء بسلطات المستعمر، كما كان المستعمر يشجعهم إذ وجد فيهم عاملاً على تأخر شعوب المسلمين وإحكام قبضته عليهم للجهل والخون والإستسلام الذي يدعو اليه أقطاب هذه الطرق.

فما استراح الشيخ من معاركه مع الطريقة والجمود حتى ظهرت في الواجهة طوائف مائعة مارقة تدعو إلى الزندقة وغالبهم من الشباب المتفرنج، وهم من تلقوا الثقافة الغربية، فانبثت فيهم كراهية الدين واللغة العربية وانتقاد الآباء والأجداد، وينعتون المتدينين بالرجعيين والمتزمتين، وهو استعمار ثقافي فكري اجتماعي سمم عقول الشباب، وهو أخطر من الإستعمار السلطوي والسياسي، إذ رغم زوال الإستعمار السياسي ورحيل رجال سلطانه بقيت أفكارهم ولغتهم وتقاليدهم منبثة ومسيطر على سواد أعظم، وفشت الشيوعية بين الطلاب، وأصبح بالعالم الإسلامي المتدين أحزاب شيوعية ملحدة وأحزاب علمانية لانكية دشتها ثورة اتانورك بتركيا الإسلامية، وكان للمغرب الحظ الأوفر في بروز هذا الخطر بين بعض الأحزاب وطلاب الجامعات، ممن كانوا مبهورين بحضارة الغرب وتفسخ مجتمعاته ولبنهم ناقسوه في الأصلح وأخذوا عنهم التقدم الصناعي، فكان بحق رجة عنيفة صدعت المجتمع المغربي، ومن يومذاك أخذ المجتمع ينسلخ من كثير من التقاليد المغربية الحسنة، ومن أخلاقيات إسلامية رفيعة، وقد افرقت بهم السبل وأصبح المجتمع أشبه بفسيفساء مشكلة الألوان، كل

ينحو نحوه، وليس وحدة اجتماعية متقاربة في سلوكاتها وفي تقاليدها وفي مظاهرها. وفي هذا الجو المضطرب، وأمام هذه العاصفة العنيفة والحديثة وجد الشيخ أن الواجب يحتم عليه جهاداً من نوع آخر، فلتن كان قد واجه المغالين في الدين إلى أن غطوا بمقولاتهم على جوهر الإسلام ولبه بقشور لا تمت إليه بصلة، فهو الآن مدعو إلى جهاد المقصرين في الدين ممن ينتقدون مبادئ الإسلام وشعائره وتقاليده ويهزأون من علماء الإسلام، وينتقدون أفكارهم وفتاواهم ناقمين على الفقهاء وناعتين أبناءهم بالرجعيين، معتزين بكل ما يأتي أو يصدر عن الغربيين ومستشربين في تقليدهم تقليداً أعمى في كل شيء حتى لو سلكوا جحراً ضرب لسلكوه، الأمر الذي شمر له الشيخ عن ساعد الجذع، وأعد له العدة شفوياً وكتابياً، فعقد له مجالس علمية لتحليل الأفكار الرائجة ومناقشتها ومحاكمتها بالدلائل العقلية والنقلية، كما جرد لها قلمه فكتب ردوداً على بعض الكتب التي تظعن في الإسلام وأهله، وللقراريء الرجوع إليه بين مؤلفات الشيخ مما سيأتي. فكان أسلوبه في نقد تلك الأفكار الموحدة ليس كما اعتد من الكثير من العلماء، باقتصارهم على مجرد نعتها بالكفر، بل كان على العكس من ذلك إذ كان الحكم لديه على الفكرة لا يوصله إلا بعد استقراءها وطرحها للمناقشة النقدية وبالتالي استنباط النتيجة، وللمثال عليه فهو لا يسارع إلى نعت الشيوعية بالإلحاد إلا بعد طرح الأفكار الشيوعية ونقدها فكرياً ثم مجابتهها بنصوص إسلامية وبالتالي يقرر فيها ما يجب تقريره، بمعنى أنه لم يكن يعتمد الأحكام الجاهزة دون معالجة الموضوع من جميع جوانبه. وهكذا انطبع حياته العلمية والدعوية بمرحلتين، العالم المجتهد المحدد، والعالم السلفي الدائد عن الإسلام، فتكونت منها شخصية علمية فريدة في خصائصها، يداكر العامة فيسقط لهم أعقد المسائل، ويحاج العلماء فيعلو كعبه وهو يقارع بين الخلافات العليا للمذاهب، ويناقش الملاحدة بالحجج العقلية فقط فيفهمهم ويترك على الأقل عند المتعصبين منهم إنطباعاً بتقدير لعالم إسلامي مفكر واسع الإطلاع بمختلف الثقافات، وليس فقيهاً حافظاً مقلداً يجتر أقوال من سبقه، ويحاج بنصوص إسلامية غير المسلمين وهم يطعنون فيها أصلاً، وفي هذا الباب حضرت معه مرة مناظرة جمعته بحملة من الشباب المتمردين ممن ينعنون العلماء بالمتزمتين والمتأخرين فكان مما

حاججهم به أن عرض عليهم ما نعوه على الفقهاء من التقليد الأعمى واجترار أقوال السابقين وجهلهم بمختلف الثقافات، فتصدى لذلك بالجواب أن ما كل فقيه عالم ما لم يكن مشاركاً حتى تنضح له سبل العلم، فيجد الحجة لاجتهاده ليس فقط من أحكام السابقين، بل وكذلك من المصالح المرسلات التي تولدت عن هذا العصر، ولكل عصر أحكامه، ولن يصل هذا إلا للدارس لمختلف العلوم ولأحوال المجتمعات، والإلام حتى بدقائق الاختصاصات العلمية، فالعالم المجتهد فحتم يبنى أساس إجهاده على ضرورة من الضرورات مثلاً قد يضطره ذلك إلى إستطلاع بعض الخصائص الطبية، أو جهة من الجهات الجغرافية أو تحليل من التحليلات الكيميائية وهو ما التزمه الشيخ في كثير من إجهاداته، وطرح أمام المجموعة الناقدة تفاسير آيات قرآنية تعرض فيها لمخترعات عصرية أو جوانب فلكية أو تحليلات كيميائية... الخ، فما كان من تلكم المجموعة إلا أن خرجوا بنظرة مخالفة لما كانوا عليه تجاه الفقهاء المقلدين الجامدين، معجبين بالشيخ أيما إعجاب.

ولقد صحت أفكار الشيخ البيرة وهو ينتمي على المسلمين الإنسلاخ من هويتهم إلى هوية غيرهم، ويتبنأ لها بالفشل الذريع، وكذلك كان ولنا المثال في تركيا فماذا بلغته من شأن في الحضارة الغربية وما بلغته دولها من حيث قوة السلاح وتقدم الصناعة، والعدالة الاجتماعية وما شاكله، بل لا تزال ترسف في اغلال الخلافات العنصرية والدينية والسياسية، من غير تقدم كبير في صناعات ثقيلة أو تحويلية تنافس بها الدول الصناعية... وهي لا تزال تستعدي أوروبا للإنضمام إلى اتحادها كدولة أوروبية، وخير للأمة أن ترقى بوضعها في إطار حييائتها الاجتماعية وماضيها التليد الذي يشرف. وناهيك بما بلغته وستبلغه إن شاء الله وبعونه ماليزيا وأندونيسيا بين ثمر آسيا في الاقتصاد والصناعة العالمية، دون علمانية، أو دعوى الحادية. وبالجملة فقد كان الشيخ يمثل وسطية دين الإسلام، فلا إفراط ولا تفريط، وبهما ضاع الإسلام بين المفرطين (بتخفيف الراء) والمفرطين (بتشديد الراء).

فهرست مؤلفات الشيخ

قال الشيخ رغم مشاغله بالتدريس نهاراً لكبار الطلبة ومتفوقهم، والتدريس ليلاً بين العثائين لعامة الناس، وما يتطلب ذلك من المطالعة والإعداد، فلم يشغله ذلك عن تأليف الكتب وتدوين أفكاره وإجهاداته، وكثير منها دعت إليه زوايا فتاوى من الفقهاء المقلدة أو فقهاء السوء المنتدعة، أودعة العصرنة المنتطعة، فكانت الكتابة بالنسبة إليه واجباً حتمياً يلدو به عن حقيقة الإسلام، ويحمي بها أفكاره وإجهاداته من الضياع، كما كانت الكتابة سلواناً له يتعاطاها بإدمان، وكما عرفنا سلفاً أن الشيخ كان ضريراً لعفود من السنوات فيما قبل وفاته، لذلك كان يحجز أحداً من أولاده أو من أحفاده أو أسباطه أو طلبته للإملاء عليه بما تجود به قريحته، ولا أخفي عن القارئ أن ما استفدته من الشيخ وهو يملئ علي، و يسألني إن كيف رسمت الكلمة فيعود بي إلى قاعدتها اللغوية، ما لم أستفده من الدروس المقصودة التي كنت أتلقيها وأسا عن غيره من المدرسين.

كان الشيخ رحمه الله غزير المادة، كثير الإنتاج، ألف في إجهادات فقهية، وفي نصرة السنة وإقناع البدع والفضالات، وفي فلسفة دين الإسلام، وكان مؤمناً بأن الإسلام فضلاً عن أنه تعديقي فألى جانب ذلك فهو معقول الأحكام، فكل منها لهدف من الأهداف هو لصالح الفرد والجماعة، وألف في غيرها من المواضيع التي تعن له، ولغريب الصدف أن هذه المؤلفات وافق عددها عدد سني عمر الشيخ، إذ فاقت الثمانين بقليل، كما أن لكل مؤلف منها قصة مشيرة دفعت إلى تأليفه، ولعله حسبما هو منشور من كتب علماء المغرب المعاصرين لم يؤلف أحد بقدر ما ألفه شيخنا، إذ كانت الشفوية طابع الكثير من العلماء، وللأسف الشديد أن مؤلفاته تلك لم تعرف طريقها إلى المطبعة، حتى تندوال بين الناس، وذلك لظروف مادية من جهة، ولعدم قبول الناشرين بطبع تحت إلى الدين بصلة متعللين بعدم إقبال القراء عليها، ورغم تعدد أبناءه من سنه يعيشون عيشة قناعة وكفاف وعفاف، ليس بينهم غني مال إلا

غنى النفس، ولذلك لم يتيسر لهم ولو مجتمعين أن يتكفلوا أداء ملايين السنيحات المطالب بها من لدن الناشرين، ولا يسعنا إلا أن نتذرع إليه تعالى في أن يكتب لهذه الذخيرة النشر والإنتشار.

وهذا الفهرست سارته على ثلاث موضوعات علمية أساسية، وسأدمج في كل موضوع أساسي ما يقاربه من موضوعات جزئية لاتعدو الكتابة فيها الكرامة والكراسين، فإليكموها والله ولي التوفيق.

اجتهادات فقهية

1- الحكم المشهور في طهارة الموطور، وطهورة الماء المالح بما يسمى بالكافور:

وهو كتاب ألفه في أول عهد إقامته بالدار البيضاء، وموضوعه مستغرب شيئاً ما، ولعله إذا عُرِف السبب بطل العجب، إذ الكتاب يتناول حلية التعطر بالعطر الأوربي، وبالوضوء بالماء المساب من أتاييب الماء التي زودت بها سلطات الحماية بيوت السكان، ومياها معالجة بمبيدات الجراثيم، ولذلك اعتبرها بعض المتزمتين مخلوطة بما ليس من جنسها، ولعلته لا يجوز التوضؤ بها.

كما حرم بعضهم العطر الأوربي لأن الكحول من مشتقاته وهو خمر يحرم شربه، ونجس نجس طهارته، فكان سكان الدار البيضاء في أول عهدهم بالحماية الفرنسية يهرولون عند رغبتهم الوضوء للصلاة إلى طلب الماء عن يوجد في بيته بشر، كما يتوجه من يسكنون قرب الشاطئ إلى التوضؤ بماء البحر، أمام هذا الحرج والإنغلاق على التزم والتقليد جرد الشيخ قلمه بتأليف الكتاب المذكور، كما أطلق لسانه بالحلية في مجالسه وفتاواه لمن انكبوا عليه يستفتونه، وكان له مع بعض الفقهاء مناظرات ومساجلات في موضوعه، وعلى رأسها مناظرته ورده على القاضي الأوحى للمدينة يومذاك وكان يفتي بعدم جواز الوضوء بماء الصنابير المالح، وما أن انتشرت فتوى

الشيخ بين أوساط السكان، حتى أقنعوا عن تلكم الإخراجات والتشديدات في الدين، وارتاحوا لغتوى الشيخ وشكروا له ذلك. وقد قال فيه الإبن البكر المرحوم سيدي أحمد شعراء منه:

كتابا قد حوى مسكا وطيبا *** وما هو إلا مستند الفحول

إذا ما الكتب جلت أو تعالت *** تروم الفخر بالحكم المشهور

2- الآيات البينات فيما قاله الشيخان عبده ورضى في تعدد الزوجات

وهو مؤلف تناول بالناقشة ما جاء على لسان الشيخ رشيد رضا وشيخه محمد عبده في كتاب تفسير المنار، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ((فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة.. الآية))

والخلاصة إن شيخنا يناصر تعدد الزوجات، ويستدل لذلك بحجج فقهية وظروف أخلاقية واجتماعية وبيئية... إلخ

3- القول الفائز في التحليل الجائز: مؤلف يتناول موضوع تحليل المطلقة ثلاثا، وشروط المحلل (بكر اللام) والمحلل له (بفتحها). وهو من الشيخ تيسير لمن وقع في هذا المحذور وحن إلى الرجوع إلى زوجته المطلقة ثلاثا، وقد رفع به الحرج عمن تورط في طلاق ثلاث، وتدم على ذلك

4- القول الفائز في نفي التهليل على الجنائز:

وهو تأليف دعا إليه ما ابتدعه الناس في تشييع الجنائز من التهليل والتكبير بأصوات جماعية مرتفعة، وما أفتى به بعض أعياء العلم بأن ترك الميت بلا غسل أخف من ترك التهليل على جنازته، فتصدى الشيخ مؤلفه هذا بالحجة والبرهان على أن السنة تشييع الجنائز بالصمت والتدبير والإعتبار. وكان الفراغ منه يوم الجمعة 28 ربيع الثاني عام 1361 هـ.

5- المستغنى في رفع الجناح عن المستخدم:

أنه لما كان المغرب يبرز تحت نير الإستعمار، وكان بعض المغاربة مستخدمين لدى الفرنسيين في المعامل والمتاجر والقصبات القلاحية والإدارات العمومية والخصوصية... الخ كان أغلبهم ينع المغاربة المسلمين من أداء فروض الصلاة في مواقيتها، فكانت مشكلة في وقتها استفتي الفقهاء في شأنها فأفتى بعضهم بالإستقالة من العمل وارتباط الصلاة بمواقيتها، وإن ليس الشغل من مبيحات الجمع بين الصلاتين. وأن الرزق على الله إن استقال العامل، فاستفتي الشيخ بما عرف عنه من علو كعبه في الإجتهد فأفتى بالجمع جمع تقديم بين الظهرين وبين العشاءين أو جمع تأخير حسب فترة عمل الشغل ولا جناح عليه في ذلك.

6- كشف النقاب في الرد على من خصص أزواج النبي بأية الحجاب:

المرأة المغربية كانت محافظة على الحجاب إلى أن ظهر على الساحة في الأربعينات إلى الخمسينات دعاة السفور، وكانوا من هيئات سياسية استعانت على دعوتها تلك ببعض العلماء ممن وصفوا بالتجديد والعصرية يشتما وسم غيرهم بالترتم والتجحر، فكان من حجة دعاة السفور أية الحجاب في القرآن هي بخصوص أزواج النبي عليه السلام. فكان هذا هو الدافع لشيخنا بتأليف هذا الكتاب وتبيان عمومية الآية، وحجته في ذلك الكتاب والسنة والإجماع.

ورغم دعوته للحجاب فهو لم يفرق في التشديد، وإنما يتشدد في تبرح المرأة المسلمة، ولا يقول بمنعها من العمل إن احتاجت إليه، وللمرأة كشف الوجه واليدين ولكن في ظروف من الحشمة والوقار.

7- حكم السنة والكتاب في طعام وذبائح أهل الكتاب:

وهو مؤلف جاء وسطا في أحكام ذبائح أهل الكتاب، فهو مع حليتها إن ذبحت من مقتل وذكر عليها إسم الله كما هو في ذبائح اليهود، أما ما عداها من التصفية الآلية العصرية، ومن الإجهاز على البهيمة بضربة مطرقة على الجمجمة فهو حرام، وفي

الخاتمة الأخيرة هذه تناول الشيخ في مؤلفه ردودا مقنعة على ما قاله الشيخان محمد عبده ورشيد رضا في حلية ذلك، لكن شيخنا أحله للضرورة خاصة للجاليات الإسلامية المقيمة في الديار غير المسلمة. وكان الفراغ منه أواخر ذي الحجة عام 1383 هـ

8- السداد والإرشاد إلى رخصة الإفطار في رمضان للدراس والحصاد:

هو من ضمن المؤلفات التي احتضنت بالرخص الدينية التي يحب الله أن توثق بها مؤتمني عزائمه، وهو ما يبين للفقهاء نفي التزم في الدين وركوب الإغراق في التدبیر إلى حد الإضرار بالنفس وبالمصالح ولا صلاح للأديان بالإصلاح الأبدان. ووافق حسب الدورة الفلكية أن جاء شهر الصيام في عز صيف شديد الحرارة، والفلاحون في شغل من أمر حصاد محصول الحقول أو دراسته بالبيادر، وما يستتبع تلك الأشغال تحت لطف الشمس وشدة الظما من المشقة والعناء. فكان أن تشریع بعض الجرائد يومذاك فتأوى مشددة لاتباع الإفطار، فأنبرى الشيخ كمادته إلى إصدار فتواه في مجالسه ولدى مستفتيه وفي كتاباته، فكان هذا المؤلف جامعاً لأفكاره في الموضوع.

9- الحكم الأجدى في حظر ترخيص إفطار رمضان لقليل من الأذى:

وهو مؤلف لا يبيح الإفطار لمجرد الإحساس بأثر الجوع والعطش، ما لم يشتد معه الضرر المؤثر على صحة الصائم.

10- اللمة في أن كل مكان تصح فيه الجمعة:

مؤلف من مؤلفات الشيخ الذي يدفع به عن المصلين الخرج في دينهم، ويهد لهم الأخذ بالرخص كما ياتون بالعزائم، وسببه أن ضاقت الجوامع يوم الجمعة بالمصلين فافتش المصلون الأقبية والطرق، وربما الدكاكين المتصلة بالمسجد فقامت الضجة مستكرة ذلك، واستغنى الشيخ في أمره، فأفتى بصحة الصلاة في تلك الأمكنة، كما أفتى بأن شرط إقامة الجمعة بالمسجد الجامع غير صحيح و يمكن إقامتها في أي مكان كان غراء أو طريقاً أو... وموجه عز فتواه ومجالس التدريس في شأنها بتحرير هذا المؤلف. وفرغ منه بتاريخ 25 رمضان عام 1352 هـ.

11- الفائدة المسموعة في لزوم طلبة واحدة في الثلاث المجموعة:

... جرى العمل بالمغرب في تلك الحقب من الزمن أن كان العد ول يتلقون طلاق الثلاث في كلمة واحدة، وقد تعزز فعلهم هذا بمنشور وزارة العدل وعلى رأسها تاريخ ذلك الفقيه الحنفي، كما كان الكثير ممن وقعوا في هذا الخرج وسبقهم لسانهم إلى جمع طلاق الثلاث في كلمة واحدة يقصدون الشيخ فافتاهم بلزوم طلبة واحدة وعدم لزوم الثلاث، كما أقدم على الكتابة في موضوعه محللاً النازلة هذه تاريخياً وفقهاً وناقشها كذلك بالمنطق والعقل وأفضى به ذلك إلى الوقوف على قاعدة صلبة بلزوم الواحدة دون الثلاث. وكان الفراغ منه في 17 ربيع النوي عام 1369 هـ.

12- كشف الحذر في ما وقع من الهرج في زكاة الفطر:

وهو أحد المؤلفات التي ترد على المتشددین في الدين، وقد بالغ بعضهم أن الزم إخراج زكاة الفطر من القمح لأنه غالب طعام أهل المغرب ولو لمزم الأمر بيع حاجات مخرجها للحصول على القمح، فأنبى الشيخ مؤلفه هذا إلى دحض تلك التشديدات بالنقل والعقل، وبلغ به ركاب المناقشة إلى تاريخ زكاة الفطر وفرضيتها، فوصل إلى أنها فرضت قبل الزكوات المعروفة، وقال فيها بعض الصحابة أن لما فرضت الزكوات سكت رسول الله عن زكاة الفطر فلم يدر أبقیت من بین الزكوات المفروضة، أم سكتها تلك الزكوات، وكانت نتيجة هذه البحوث أن زكاة الفطر تجوز بالنقد وهو الأولى لظروف العصر وللهدف المتوخى منها وهو التوسعة على ذوي الحاجة يوم العيد.

13- البحث الجلي في دلائل تكفير من لا يصلي:

وقد خلص منه إلى أن الكفر كفر دون كفر، وأن تارك الصلاة ليس بكافر تماماً. مادام الشخص يشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله.

14- الحق المثبت لجواز كراه الأرض بما تنبت

15- الصحيح بلا مرية في الحكم على التأمین بالحرمة

16- القول الصائب في طلب الجماعة بعد الراتب:

وهو يعني إباحة إقامة الصلاة جماعة من فاتهم الصلاة مع الإمام الراتب.

17- إعفاء النحية زينة رجال السنة:

وهو مؤلف دعت إليه طرقات عتيبة جماعة صلي بالناس وكان غير مألوف، فقامت عليه ضجة، فكتب عنه شيخنا بأن خلق النحية غير قارح في الإمامة، ولا هو شرط فيها، وإعفاؤها سنة وزينة الرجال وإطلاقها محدود.

18- القول المؤيد في أن التيمم يرفع الحدث الرفع الملقيد:

هو مؤلف فقهي يرد به على من يلبد التيمم في رفع الحدث، ولا يسوي بين التيمم والمغسلة بحيث لا تؤدي به الاصلاة مفروضة واحدة ولا يباح ان يأثم متوضيء تيمم، عدا ما قيل من حصر الأعداء التي تبيح التيمم، وقد بسط الشيخ في مؤلفه هذا واحداً وثمانين علماً مبيناً للتيمم، وسوى بينه وبين الوضوء لافرق.

19- إرشاد الخياري في تحريم زِيَّ النصاري:

20 - مدلول السنة في السلام عليكم ورحمة الله:

21- حل إبرام النقض في الرد على من طعن في محلولة سنة القبض:

22- السيف المسلول في رد تضليل من ترك السيادة في صلاة الرسول:

مؤلفات في مناظرة السنة المظهرة ومخاربه الطرقية والبده الضالة المضلة

23- حكم الكتاب والسنة في وجوب هدم الزوايا والأضرحة

على اعتبار أنها مساجد خراب، والأضرحة عبارة عن أماكن للفقيرين تتلقى مع روح الإسلام في تغرد الله بالخلق والنع والعتاء. عدا ما يجرأه على المسلمين من اختلافات وتجهيل وتغفل.

24- الدلائل البينات في البحث في دلائل الخبرات

وشرحه مطالع المسرات:

تناول فيه البحث مع صاحب دليل الخبرات وشارحه صاحب طالع المسرات، وما جاء به من صلوات ودعوات ونسبة بعضها إلى النبي وصحابته، وما فيها من مخالقات وغلو تشتط به عن قواعد الإسلام وأسنه وروحه.

25- الذكر المحفوظ في نفي رؤية اللوح المحفوظ:

دعت إلى تأليفه مزاعم أدعياء الولاية والصلاح برؤيتهم للوح المحفوظ، ورؤية النبي المصطفى له، ويتساءلون ان كيف لا يعلم الرسول ما في اللوح المحفوظ، وهو من الكائنات المخلوقة من نوره، وغيره من المزاعم التي لا سند لها من كتاب أو سنة، وإذا هي شطحات صوفية ومهاترات، وقد ناقش الشيخ في مؤلفه هذه المزاعم تلك ودحضها بحجة النقل والعقل.

26- إيقاف الهمم في أن عهود مشايخ الطرقية لا تلزم:

وهو مؤلف يتناول تلك العهود التي يأخذها مشايخ طرق البدع والفضالات على مريدتهم وأتباعهم حتى يحكموا الوثاق عليهم خديعة ومكرراً، والتي ينتهب معها هذا المعاهد الرجوع عنها وعدم الوفاء ببلده لمشايعه، فكم من مريدي الطرق الضالة افتتح بدعوة شيخنا إلى السنة النبوية الحقة لكنه لاخذاعه من المشايخ في الله، ينتهب الرجوع عن نموده لشيخ الطريقة، فوجدوا الشيخ فرصة للكتابة في الموضوع، مما وجد معه التائبون واجبا حتميا في سد الباطل والرجوع عنه إلى الحق المبين، وفي ضمن هذا المؤلف تعرض الشيخ للبيعة مطلقا وخلص منها ان لا طاعة لخلق في معصية الخالق.

27- من أحسن ما تصغي إليه الأسماع في نقد ما اشتمل عليه تمتع

الأسماع في الجزولي وأصحابه والتابع :

وهو كتاب نقد لما اشتمل عليه كتاب «تمتع الأسماع» في ذكر الجزولي والتابع وما لهما من أتباع، وقد رد فيه على شطحات الصوفية وترهاتهم وما ينسب إلى مشايخهم من الخوارق التي لا يقبلها العقل، ومن الأوصاف السنية التي لا يتصف بها بشر، ولا تفرها الشريعة وقد ضمت هذا المؤلف سبعة دقاتر من الحجم الكبير. وكان الفراغ منه في 30 شعبان عام 1384 هـ.

28- البراهين العلمية في بيان ما في الصلاة المشيشية

وهو تأليف ينضم إلى التأليف التي تنبع فيها الشيخ شطحات أهل الطرق وسدنة الأضرحة، وكما تولى بالرد والدحض مزاعمهم في الخوارق والكرامات، وتطور أولياتهم من حال إلى حال، فلم يفته أن يشدد طوق الحصار عليهم فتولى كذلك الرد على صلواتهم ودعواتهم، وتقريره فيها أنها ليست من الشريعة في شيء، بل هي أقوال وإدعاءات لا تفرها طبيعة الله في سير هذا الكون، كما أنها في أغلبها خروج عنها ومروق منها، ويوجب سل قلم الحق في بطلان وإبطال مهاترات الصلوات المشيشية، وما فيها من غلو وخروج عن شرع الله، وخرق للسير الطبيعي لهذا الكون وللقدرة المحدودة لهذا الإنسان.

29- تنبيه الرجال في نفي القطب والغوث والأبدال :

وهو من جملة المؤلفات التي تصدت لضلالات المبتدعة وأدعياء الولاية، ومن ترهاتهم أن أضافوا على منتحلي الصلاح والولاية درجات ومقامات منها القطب والغوث والبذل وما شاكل ذلك .

ويدعون أن لا بد لله من خليفة في أرضه قد يكون متصرفاً ظاهراً فقط كالسلاطين، وباطناً كالأقطاب، وقالوا عن الأقطاب أن لهم وزراء هم من النجباء والنبقاء والأغوات

والأبدال . وعندهم أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه

وشيوخنا تصدى بمؤلفه هذا لدحض هذه الترهات، وأشاع بين الناس في دروسه الشفوية وفتاواه فريتها على الله وعلى الإسلام . وتم تأليفه سنة 1348 هـ.

30- القول الجلي في رد القول بتطور الولي :

وهو رد على فتوى للسيوطي بأن الولي يتطور مما يثبت له تعدد في ذاته فتقيم ذات وترحل أخرى وتسكن ذات وتنحرك أخرى، مع الزعم بأن ذلك من صفة الأبدال، وقد راج هذا المفهوم المقتري بين أدعياء الولاية وأشاعوه بين مريديهم، الأمر الذي تصدى له الشيخ كمادته من أجل استقصاء كل ادعاءات مشايخ الطرق وضلالاتهم بالرد والدحض تنويراً للعقول ودفاعاً عن الإسلام المقتري عليه .

31- الإستفاضة في أن النبي لا يرى بعد وفاته بقطة :

كتبه رداً على السيوطي في كتابه «تنوير الحوالك في إمكان رؤية النبي والملائكة» ويعنى به إمكان رؤيتهم ورؤية الأموات بأرواحهم وأجسادهم في دار الدنيا . وهو كذلك رد ضمنى على الطائفة التجانية وهم من عاداتهم إخراج أرواحهم بعد العصر في حلقات ينشرون وسطها أزاراً أبيض، ويزعمون أن النبي (ص) يقتعده أثناء إخراج الورد.

32- لطف الله مع هبته في الرد على قاضي أمزاب وشيعته :

وهو رد على أفكار صوفية يتبنّاها القاضي المذكور رغم مخالفتها للسنة النبوية الطاهرة .

33 - الزهرة في رد غلو البردة :

وهو واحد من أربعة تأليف يتعلق بالغلو في مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد ذهب بعض الأمداح إلى إضفاء صفات الألوهية على الرسول، وبعضها

أزرت بمقام جميع الأنبياء والرسل لتجعلهم لاشيء امام سيدنا محمد، وإنه علة هذا الوجود كما اعتقد بعض المادحين، وقد تناول الشيخ الرد على آيات قصيدة البردة وعلى شراحها.

34- الحجج العلمية في رد غلو الهرمزية:

وقد تناول فيه ما تناوله في البردة

35- أصفى الموارد في الرد على غلو المطربين وأهل الموالي:

وهو مؤلف يرد على جوقات المادحين، وما تحتويه ألفاظ المدح من غلو، وعلى أهل الموالي أيام عبد المولد النوي وما ابتدعه من طقوس لاتليق بالإسلام.

36- الدرّة الوهاجة في نفي صحبة بني يدغوغ وركراكة:

وهو كراسة من ضمن المؤلفات التي تناهض مقتريات المبتدعة على الدين وعلى التاريخ، ومنها أن ادعى أطراف من بني يدغوغ ورجراجة من قبيلة الشياظمة صحتهم لرسول الله تصدى الشيخ لدحض هذه القرية على التاريخ وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهم في فريتهم تلك رسالة مكذوبة تنضح إفتراءات وأراجيف قد تثير الاستخفاف لصيانتها وإستحالة الربط بين أحداثها، وللا معقولة وقائعها، ومن الترهات القول بأن ودعهم الرسول وقد مد أصبعين من يده الكريمة فأنتيق منهما نوران امتطت رجراجة أحدهما وركب بنويدغوغ ثانيهما فقطع النوران بهما القلوات والبحار إلى أن وصل إلى الشياظمة، مع أن الفتح الإسلامي لم يكن إلا بعد وفاة الرسول، كما أن الإسلام لم يصل المغرب إلا بعد حقب من وفاته عليه السلام.

37- الرسالة الشاقة في قمع شقيطي أيت واقا.

38- تحفة الأمان في الرد على أصحاب التجاني.

39- نظر الأكياس في الرد على جهمية البيضاء وفاس:

وموجب تأليفه هذا ما كان يترى به أعداء السنة من الإجهاز على الشيخ وإسكات صوته، فواتهم الفرصة والشيخ قرر في مجلسه ما قرر في تفسير استواء الله على عرشه، فقامت قيامتهم وحشدوا لها كل مضطغن حقوق فلعنوا وشنعوا وشكوا إلى السلطات وقضاة المدينة، وتولى كبيرها دعي علم كان جاسوسا للفرنسيين مسلطا على الشيخ وآل الأمر إلى توقيف الشيخ عن مجالس الدرس بالجامع المحمدي، نحواً من أربعين يوماً، وعقد مجلس للمناظرة بدار القاضي فجمع له كل دعية للعلم فكان أن أخرج الله السننهم وعجزوا عن تأييد طروحاتهم، ورغم تمسكوا بتعصبيهم وميولهم، وحدث أن لجأ أحد هم إلى أحد علماء فاس ويده ذخيرة وريقات تركها له والده، ومضمونها أن السلطان الحسن الأول وأثناء ختمة صحيح البخاري بين يده على عادة السلاطين العلويين طرحت مسألة الإستواء على العرش فوقع في شأنها خلاف بين العلماء الحاضرين بمجلسه، وكان الخلاف بين علماء فاس والشيخ عبد الله السنوسي من علماء طنجة، فأمهّل السلطان الطرفين للعد كي يدلي كل طرف بما عنده كتابة، فأتي بتلك الوريقات لتنتشر على المسامع، بينما الشيخ السنوسي لم يوفق في الرد عليها تأييداً لمدح هبه فأقصي من مجلس السلطان. وقد حملت هذه الوريقات إلى السلطان سيدي محمد بن يوسف بقصد الإنتقام من شيخنا، فكان ذلك سبباً في استقبال السلطان للشيخ وحفاوته به وصلته له والسماع منه، والأمر باستئناف شيخنا لمجالسه العلمية. وقد مد أحد الفضلاء شيخنا بتلك الرسالة فتولاها الشيخ بالرد عليها جملة وتفصيلاً.

40- الإمام في رد ما ألحقه مبتدعة زايان من العار بالإمام:

وهو أن أحد العلماء وهو مولاي الطيب العلوي الذي أقام بعد بفاس، وأسس بها مد رسة عصرية، وكان من أوائل رجالات الوطنية، حدث أن أقيم مسجد جامع ببربرت، فأتم الناس في صلاة الجمعة بمولاي الطيب المذكور، لكن بعض المنتظمين من المبتدعة قد قدحوا في إمامته لاشيء من شروط الإمامة إلا أنه كان قد انسلك من طريقة من طرق أدعياء التصوف، والتزم السنة النبوية الشريفة، فاستجد الإمام هذا بالشيخ لبشغي غلبه فيمن أنكروا عليه إمامته فكانت هذه الفتوى جامعة مانعة في كرامة فرغ

من تحريرها عام 1351 هجرية.

41-الميزان العزيز في البحث مع أهل الديوان المذكور في كتاب الأبريز:

في هذا المؤلف كذلك يتناول الشيخ زعما من ضلالات المبتدعة، فيما جاء عن الشيخ عبد العزيز الدباغ في كتابه الإبريز: ومن جملة ما يختلق على الإسلام أن للأولياء ديوانا يجتمعون فيه فيجلس العوت ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى والأقطاب الأربعة على يمينه والوكيل أمامه وينسب إليه التصرف في الكون... إلخ الترهات والأراجيف التي تسيء إلى الإسلام، وتخدر عقول المسلمين وكان الفراغ منه سنة 1372 هجرية.

مؤلفات في الفكر الإسلامي والعقائد

42-توفيق الله في الرد على حكم ابن عطاء الله:

بعد أن ألف الشيخ كتابه: الفضل والمنة في البحث في حديث لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وتناول فيه مناقشة أصحاب ابن مشيش والشاذلي وأتباعه في الوحدة، ورأى الشيخ استطرادا لتلك البحوث أن يتتبع بعض حكم ابن عطاء الله وبعض شراحه كآب عجيبة، وذلك لدلائلها القوية على مذهب الجبرية والخلولية والإحادية وللمثال أن نقل ابن عجيبة في شرحه عن الشيخ العربي الدرقاوي أنه سمع الفقيه البناتي يقول: كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون حيا، ولو كانت الصلاة تجوز بغير قرآن لجازت بكلام ابن عطاء الله. والتأليف هذا من أكبر مؤلفات الشيخ، وقد ضمه أكثر من عشرين دفترًا متوسط الحجم، وهو بحوث في الفكر الإسلامي، ومناقشات آراء الطوائف الإسلامية في العلاقة بين العبد وربه.

43-الأبحاث البيضاء مع الشيخين عبيد ورشيد رضا.

وهو مؤلف في البحث مع الشيخين فيما معناه عندهما أن الآيات القرآنية لا تدل

صراحة على أن الله خلق البشر كله من آدم بل هي مهمة تختمل وتختمل، وهو قوله تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة... الآية

والرأي لدى الشيخ هو وحدة أصل الإنسان في آدم عليه السلام، وله في ذلك مباحث جلية وقوية، وكعادته كانت مستنداته عقلية وعقلية قوية الحجة والبرهان

44-الإرشاد والتبيين في البحث مع المرشد المعين:

دعاء للكتابة البحث مع شراح المرشد المعين للشيخ الجليل ابن عاشر في مقدمة علم العقائد وما في هذه المسائل مما يغالط الدليل الصحيح أو يخالف راجحه، كالإلتزام بعقيدة الأشعرية وطريقة الجنيد، وما قيل في صفات الله وفي إثبات الجهة له، وفي وحدة الذات وفي إستواء الله على عرشه، وقس عليه ما شاكله.

وهو مؤلف مضمن في 3 دفاتر من الحجم الكبير، وقد فرغ من كتبه وتصحيحه في ثامن ذي القعدة عام 1376 هـ موافق 05. 06. 1957.

45-المستغنى في خلود الجنة وفناء جهنم:

هو كتاب نفيس تطبعه فلسفة روح الإسلام، فلتن كانت الأعمال بالحواس، والجزاء بالأعمال، فقد كان وعد الله لعباده بالجزاء يوم القيامة، فإما الجنة وإما جهنم وكلاهما منذور بالخلود لكن التساؤل المطروح بالخارج إن هل الخلود مطلق أم مقيد. وعلى هذا المتوال كان بحث الشيخ في تأليفه هذا فناقش الموضوع كعادته نقلا وعقلا، فمن حيث النقل ساق العديد من الاستدلالات، وركز على آيات التثبير بالجنة والإنذار بالنار، فهذه البحث إلى أن ذكر خلود النار جاء مقيدا، يقول تعالى: خالد بين فيها أبدا ما دامت السموات والأرض... ويقول: خالد بين فيها أبدا إلا ما شاء ربك بينما عند ذكر خلود الجنة ترك العبارة مطلقة وغير مقيدة. واستنتج ذلك كذلك من أحاديث نبوية شريفة، ومن حيث العقل افترض كثيرا من الفروض أهمها أن لو افترضنا شابا كافرا مات بعد بلوغه سن الرشد بقليل فهل من رحمة الله وعدله أن يخلد في النار أبدا الأبدية، فوصل به البحث إلى فناء جهنم آخر الأمر وبمشيئة الله وعفوه وقد كان

الفراق من تأليفه بتاريخ 24 جمادى الأولى عام 1370 الموافق 02 مارس 1951

46- أوثق العرى في أحكام الشورى :

فالشيخ يناقش في هذا المؤلف أحكام الشورى في الإسلام، ويعارض أسلوب الدول الغربية فيما يدعونه بالديموقراطية.

47- الإرشاد والسداد في فضل ليلة القدر على ليلة الميلاد

48- بحث الحق وأهله، مع صاحب الحكم وشيعته

49- الفضل والمنة في حديث لن يدخل أحدكم عمله الجنة

50- العارفون الأبرار يعبدون الله طمعا في الجنة وخوفا من النار

وهو مؤلف يرد به على مهارات بعض أدياء الولاية والصالح، في زعمهم أنهم يعبدون الله حبا فيه لا طمعا في حنته ولا خوفا من ناره

51- الفوارق الجلية بين القوانين الوضعية والشرائع الإلهية

52- التبشير بالجنة لا يختص بالعشرة.

مؤلفات علمية

53- القول المعلوم في إباحة النظر في النجوم

54- المسائل البديعة في البحث مع أهل الهيئة والطبيعة

55- إظهار الحق والإنصاف في البحث مع صاحب توجيه الانظار

لتوحيد المسلمين في الصوم والافطار:

وهو تأليف دعا إليه ما ذاع وشاع في إبانة من دعوة إلى توحيد شهر الصيام في جميع

قارات العالم. وقد وقف الشيخ يومذاك على كتاب معنون «توجيه الأنظار لتوحيد المسلمين في الصوم والافطار» فكان المادة التي تناولها الشيخ بالبحث والمناقشة، وفي اجتهد أن التوحيد غير ممكن ولا متيسر، وذلك حسب نتائج بحثه فلكيا وجغرافيا وفقهيا.

56- الابحاث والعبر في نفى وصول الصاروخ الى القمر:

57 - شفاء الصدور في أن الشمس سائرة، وأن الأرض ساكنة لاتدور

مؤلفات في مقارنة الأفكار الغربية الدخيلة

58- سيف النكال والزجر في الرد على من قال لكيلا تحرثوا في البحر

وهو تأليف يرد فيه على كتاب صدر لكاتب مصري مشهور يدعى محمد خالد، وقد أسماه: لكي لا تحرثوا في البحر، وتأليف الشيخ تناول ما احتواه كتاب محمد خالد من تناول على الإسلام والمسلمين، واستهجانه لأحكام الإسلام وأوامره ونواهيه. وفي نظرية الشيخ أن الإسلام دين ودولة، وهو بحق أحد المؤلفات المواجهة للعلمانيين والمستهجنين لشعائر الإسلام وأحكامه.

وأعلق هنا على أن المؤلف هذا رجع -بعد- عن هذا في مؤلفات له لاحقة، وقال بأن الإسلام دين ودولة وحق وقوة، وعبادة وسياسة، وثقافة وحضارة، وإخاء وتعارف، من كتابه «الدولة في الإسلام».

59- الإعلام في الرد على من حقر بعض شعائر الإسلام

وهو رد على مقال صدر بجريدة العلم عدد 1563 بتاريخ ذي الحجة عام 1370 الموافق 09 سبتمبر 1951 تناول فيه كاتبه تحقير دور خطباء الجمعة، وما تناوله خطبهم من وعظ وإرشاد، وقد تناوله بنقد لغة الكاتب وأسلوبه كما نقد مفاهيمه من حيث

اسماء لها لبعض شعائر الاسلام، كالأضحية يوم عيد الأضحي.

مؤلفات وكراسات في مواد مختلفة

60- البراهين البينات في أن الأنساب ظنيات لا قطعيات:

إدعاء النسب الشريف كان ظاهرة في المغرب، «فكل يدعي وصلاً بـعلي»، والشيخ وقد جند نفسه لتتبع جميع المثالب والإنحرافات لتطهير المجتمع الإسلامي منها، تولى هذه الظاهرة بالبحث والنقد. فكان من ردوده أن الشرف شرف محمد بالرسالة، ولن يكون شرف النسب -تجاوزاً- إلا للأبناء المذكور لا البنات فأبناءهن أسباط أبناء رجال أباعد.

بنونا بنو آبائنا وبناتنا *** بنوهن أبناء الرجال الأباعد

والشرف الحق شرف أتباع سنة محمد صلى الله عليه وسلم وليس شرف النسب.

لقد رفع الإسلام سلمان فارس *** وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

إن الأنساب مع مرور حقب الزمان لم تحفظ حق الحفظ حتى إن علماء الأنساب اتخذوا لذلك قواعد لإحراق انقطاع جد أدنى عن جد أعلى وهو مظنة شك وريب، ويترتب عليه أن لا شرف إلا شرف الإسلام والتقوى.

ولله دَرٌّ من قتال:

يقولون نسل المرء يحيى بذكره **** وليس له ذكر إذا لم يكن له نسل

فقلت لهم نسلي بدائع حكمتي **** فإن لم يكن لنا نسل فأنا بها نسل

61- رد طعن الطاعنين في سحر اليهود لسيد المرسلين ..

62- مناهج الرجال في الرد على الشيخ رجال

63- الاختصار في جواز الشكوى والانتصار فرغ منه في رمضان المعظم عام 1348.

64- الأجوبة الشافية على الأسئلة العباسية

سئل في شأن خزانة كتب زاوية تنا عملت بهتيفة، وهي سجنينة بالخرزاة لا يطلع عليها مطلع ولا يدرسها دارس.

65- وشيخ تزئين الأرائك في إرسال النبي الى الملائكة

وهو رد على السيوطي وغيره من يقولون بأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم مرسل كذلك إلى الملائكة.

66- الحياة والقوت، فيما هو الحق في تمني الموت

وموجه أن عاب بعضهم على الشيخ تمني لقاء ربه وهو على فراش المرض.

67- تحفة الرسائل في أنواع من المسائل.

68- بيان أدلة التواب المجملة وتقييدها بالدلائل الميمنة.

69- التهانني في أجوبة الفقيه العثماني.

70- التذكرة في جواب النكرة

71- التقاليد المحتملة في بيان الدلائل المجملة.

72- خير المتاع في بيان أخطاء فقيه بني السباع:

73- تحفة الأصحاب في ذم الإرهاب:

وهو مؤلف من جزئين، وقد تعرض فيه لما ابتلي به العالم الإسلامي من التورات

والمقاومات التي للأساس لها من أحكام الإسلام، وإنما هي تقليد لشعوب ملحدة أقامت ثورتها ومقاومتها على غير هدى من دين فقتلوا وذبحوا وأحرقوا... و.. من المجتمع من لاعلاقة له بما يزعمون، وذلك غيلة وغدر، وقد تتبع مختلف الوقائع بالبحث فيها واستنباط أحكام الشرع في شأنها، وخلص إلى أنها إرهاب وغيلة وغدر وقتل النفس بالباطل، وليست جهادا والدين منها براء.

74- المثاني والثالث في مناقشة صاحب الخطبة وما فيها من مباحث

75- النصر والتمكين في وجوب الدفاع عن فلسطين.

وهو كتاب ألّفه الشيخ سنة 1948 إبان حرب الاستنزاف بفلسطين، غيرة وحمية من الشيخ على الإسلام، ويسوق فيه حكم الإسلام في وجوب الدفاع من كل المسلمين قاطبة عرباً وغيرهم بغض النظر عن انتماءاتهم، ويذكرني هنا أن كان الشيخ يمتنع عن اقتناء الراديو لأهل داره، وذلك منه ليس تحريماً مطلقاً، وإنما هو من باب الحفاظ على أخلاق أهل البيت من الكلام الساقط سيما وكانت تذاع يومذاك أغنيات سافلة وأغنى فيه بأن المذيع كمطلق إنسان بجانبك إن قال خيراً فأنصت له، وإن قال شراً فأعرض عنه وابتعد، والراديو كذلك فإن أذاع خيراً فاستمع، وإن أذاع سفالة أو هجراً فأسكته، ويوم نشبت حرب فلسطين كان هو الراغب في اقتناء المذيع، وذاب على تسقط الأخبار من إذاعة لأخرى، ولسانه لا يفتقر عن الدعاة لنصرة الإسلام والمسلمين بتلكم الديار.

أما باقي المؤلفات وهي في مجموعها تنيف عن الثمانين، فلم يعثر عليها بخزانة الشيخ المرحوم، وذلك أن لم يكن يحتكر علمه ولا كتاباته عن أي طالب، سيما وقد كان أحدهم يتولى نسخ مؤلفات الشيخ، فلا يدري أن يكون قد احتفظ ببعضها. والله أعلم.

إبناء الشيخ

للشيخ من الأبناء تسعة ذكور وخمس بنات، وسأتناول تراجم الذكور منهم

قدر المستطاع، وحسب ترتيب تواريخ ميلادهم،

- المرحوم العلامة الشاعر سيدي أحمد التوفى سنة 1351 هـ 1932 م

كان الولد البكر للشيخ وقد ازداد خلال إقامة الشيخ بالقبائل الزابانية، وتلمذ على يد والده، فكان الولد سرأيه، إذ نبع في ثقافته إلى أن أصبح في مصاف العلماء والأدباء رغم حداثة سته، فقد كان يقرض الشعر ويساجل الشعراء، كما كان يقيم مجالس علم وحلقات درس يختلف مساجد الدار البيضاء، الأمر الذي ألّب عليه بعضاً ممن أكلت صدورهم الغيرة والحسد، فشكوا إلى قاضي المدينة الأوحى يومذاك وهو الفقيه السيد علّال الشرايبي، يستعدونه على الفقيه الشاب، قائلين في حقه إن المساجد أصبح يلعب فيها الصبيان، فأسمعهم القاضي بحضوره هو وبعض أعيانه وعُدوله إلى مجلس ابن الشيخ بالمسجد اليوسفي، وقد تصدر القاضي جلساء المجلس على مرأى من المدرس الشاب، فما قُتْ ذلك في عضده، بل استرسل في إملاء درسه وكان من رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وذبحه بأقوال المذاهب في المسألة، وما جاء من أحاديث نبوية في شأنها، وكل ذلك في جرة ومن غير خجل أو وجل أو تلتمع لسان، وبعد الفراغ من الدرس وأداء صلاة العشاء هرع الواشون إلى القاضي يستطلعونه رأيهم، فما كان منه إلا أن قال اذهبوا واشتروا «اللبد» وتعالوا أحضروا مجلس هذا الصبي، فسقط في أيديهم وارتدوا خاسئين. وفي اليوم التالي اقترح الشيخ الوالد على الولد أحمد زيارة السيد القاضي وشكره على تشريفه للمجلس وأخذ رأيهم فيه، وذلك من غير معرفة من الشيخ ولا من الولد أحمد بسبب الحضور وبالمكيدة المدبرة، فمثل الولد بين يدي القاضي وأنشده قصيدة عصماء في مديحه، فرحب القاضي وأثنى، وأخير الزائر بسبب حضوره المجلس، وقد طمأن القاضي الصغير وأذن له بالتدريس في أي مسجد يشاء من مساجد الدار البيضاء.⁽¹¹⁾

(11) وقال فيه العلامة المدي الكائنوي وهو نفسه من تلاميذ الشيخ: كان من أذكى الأبناء وأجهمهم، ظهر بظهر عظيم من الذكاء، تخرج على يد والده فقط، ودرس للتصنيف والشتمال والعربية، وله تأليف منها: المراف الأبرار في أن القيس سنة النبي المختار ومنها نظم التمثيل «وميوان شعر» ومساجلات شعرية.

وقد كان الولد سند والده «والإبن سرّايه» فكان له عوناً في التدريس للطلبة بمدرسة الشيخ كما كان هو الآخر سيفاً مسلحاً على أهل البدع والضلالات، ناظر بعضهم، وكتب في الرد على ترهاتهم، ونظم شعراً في هجو وتسيه مزاعمهم، وللمشال لا الحصر كان الفقيه شعيب بن قاسم الهراوي يقول بسدل اليدين في الصلاة على خلاف الشيخ الذي يقول بسنة القبض، وكان رده تشنيعاً بالوالد، فكتب له الولد رسالة بليغة جمعت بين أدلة العلم وبلاغة اللفظ، ثم اتبع ذلك بتأليفه الكتاب المتقدم ذكره، وحصل كذلك وكما ذكرنا سابقاً أن مبتدعة الدار البيضاء أوفدوا إلى فاس من أئامهم بمالهم يذود عن الأولياء والصالحين في مواجهة الشيخ، فكان القادم - هذه المرة - شيخاً من شيوخ القرويين عن أخذ عنهم الشيخ الوالد وهو العلامة سيدي محمد بلحاج السلمي وكان رجلاً صوفياً.

فبعد مجالس في الذب عن الأولياء، ولما وصل خبره إلى الشيخ، وبينما العلامة ضيفاً على أحد وجهاء الدار البيضاء إذا بالشيخ يصطحب معه الولد إلى دار الوجيه ويستأذن، وذلك منه ليس تطفلاً ولكن ابتغاء مرضاة شيخه، ومقابلة رأي برأي، فحيناً شيخنا شيخه بكل إحترام وأدب، وعرض عليه رأيه في أولياء الرحمن من أولياء الشيطان، وأنه ينكر على أديعاء الولاية وهي منهم براء، فتبينت الحقيقة لشيخ الشيخ وأنصف رحمهما الله معاً. وأما ولد شيخنا فقد وقعت بينه وبين ولد شيخ فاس مساجلات شعرية ومن تقطيعها تبين سلامة أبيات ولد شيخنا دون أبيات ولد شيخ فاس، وكانت للولد أحمد علاقة مثينة ورابطة قوية بالأديب الشاعر الحاج إدريس بن الفضل الأغماري والحاج الفضل كان أحد العلماء، كما كان ولده المذكور مدرسا للعربية بالمدارس العمومية، ثم ألتحق بسلك العدول، وآخر مطاف حياته الوظيفية قضاء في سلك القضاء وتقلب في مناصبه كان آخرها مستشاراً بمحاكم الإستئناف، وكم له من مساجلات ومراسلات شعرية مع سيدي أحمد هذا، لا أطيل بذكرها.

وقد كان الولد هذا أحمد ضعيف البنية، وسرعان ما أصابه الداء وهو لم يعمر بعد ربيعته الثالث، ووليلة الثلاثاء ثالث جمادى الثانية عام 1351 هـ الموافق لـ 03 أكتوبر

1932 م وافاه الأجل المحتوم، وشيعت جنازته في محفل رهيب إلى حيث مرقده الأخير بالمقبرة القديمة بالدار البيضاء، تعمد الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

-المرحوم الفقيه العلامة سيدي الحسن 1337-1398 هـ-

ولد بفاس يوم تاسع ذي الحجة سنة 1337 هـ الموافق 4 شتنبر 1919، حفظ كتاب الله وهو ابن 14 سنة على يد المقرئ البركة السيد الماحي الحريري بالدار البيضاء، فتتلمذ على يد أخيه أحمد رحمه الله وعلى والده ومنه تلقى ثقافته التي أهلته ليحتل مصاف العلماء، فكان العلامة الأديب والتقي الورع عن يصدق فيه بحق القول شاب لا صبوة له، فتصدر للتدريس إلى طلبة مدرسة الوالد على مختلف مستوياتهم، فختم الأجرامية مرارا، وابن عاشر مرة واحدة، وألقيه ابن مالك ثلاث مرات، والرسالة لأبي زيد مرتين، ودرس لطلبته مختصر الشيخ خليل، والتحفة لابن عاصم ولامية الأفعال والجمل والمنطق، ودرس الأربعين النووية والبخاري والقرائض والمعلقات السبع ومقصورة ابن دريد، والأصول والتفسير والتاريخ، وقد انجذب تلاميذه كثيرين، كما ألف كتاباً هي الأخرى لا تزال مخطوطة ولم يكتب لها النشر، ومنها بحث جليل مع صاحب دائرة المعارف الشيخ وجدي، وكتاب تحفة الرسائل في أنواع من المسائل، وديوان شعر، ومؤلف معنون بتزئة المجالس، ومؤلف خلاصة العذب الزلال (في مباحث) رؤية الهلال وقصة أسماها «فتاة يفخر بها الزمان»، وترجمة مطولة لوالدنا الشيخ أسماها: «جواهر الحسان وقلائد العقيان في ترجمة شيخ الإسلام أبي زيد الحاج عبد الرحمن ومن أدب الرحلات رحلته الحجازية».

وبظهور المدارس العصرية انتصاراً للعربية، ومناهضة لرغبة سلطات الحماية الفرنسية في فرنسا المغرب وطمس هويته، أسس الشيخ مدرسة على تلكم الشاكلة وتحمل اسم «مدرسة السنة»، فنقل إدارتها ابنه الحسن هذا، ورغم أنه لم يشغل عن القيام بدروس الوعظ والإرشاد في المسجد المحمدي وإلى جانبه القيام بخطبة الجمعة بالمسجد اليوسفي، وقد اجتمع عليه مناصرون كثيرون وأصل معهم رسالة والده في نصرة السنة ومناهضة البدع الضالة، ولا يزال بعض حضار مجالسه يحتفظون بتسجيلات سمعية

للدروس، ويعتصمون حلقات لسماعها من جديد. ويقال عنه بحق أن كان طيب المعشر، هادئ الطبع سليم الطوية، متدينا منذ نعومة أظفاره ولا غرو في أن يقال عنه أنه كان شابا لا صبوة له، وقد حج مرتين، رزق ابنة وولدا أسماه عبد العزيز تلقى هذا الأخير دروسه الابتدائية بمدرسة الوالد، ولما أنهى دروسه الثانوية ألتحق بسلك التعليم إلى أن حصل على التقاعد النسبي ليتولى إدارة مدرسة السنة بعد وفاة والده رحمه الله، والأستاذ هذا له قلم سيال، وجولات في عالم الشعر الحديث وهو بالجملة أنعم به من ابن لذكركم الوالد العظيم، وأكرم به من حفيد لذكركم الطود العظيم، وبعد هذه الحياة الزاخرة بالكرامات في وقف حياته للتعليم والدعوة إلى السلفية، لبي نداء ربه سنة 1398 هـ - 1978 م عن سن 58 سنة

- عبد ربه محمد كاتب هذه الترجمة:

ازداد بالدار البيضاء بتاريخ 27 ذي القعدة 1350 هـ - 03 أبريل 1932 م بالمدينة القديمة تلقى دروسه الأولية على يد والده الشيخ وأخيه الأكبر سيدي الحسن، حصل على الشهادة الابتدائية سنة 1947، وبعد سنتين من الدراسة التحق بمؤسسة والده مدرسة السنة ليعمل معلما بها، ومكث بها إلى سنة 1957 بعد الاستقلال ثم التحق بالتعليم العمومي الرسمي، وقد تقلب في أسلاكه من معلم ابتدائي إلى مدير مدرسة إلى أستاذ السلك الأول ثم أستاذ بالسلك الثاني ثانوي، وذلك بمعاهد ثانوية، ومدرسة المعلمين وأخيرا مدرسة المعلمات، وقد احرز خلال مشواره بالتعليم على الكفاءة في التعليم الابتدائي، ثم شهادة الكفاءة في التعليم الثانوي بصفته أستاذا للسلك الثاني الثانوي.

ورغم مهام الشغل فلم ينشغل عن المزيد من التكوين المستمر فتابع الدراسة بعصامية وجهد جهيد إلى أن نال « البكالوريا » ومنها إلى متابعة الدراسة الجامعية، فأنتسب إلى كلية الآداب بفاس ومنها حصل على الإجازة في الأدب العربي، وحذفته بعدها الدراسة القانونية فانتسب إلى كلية الحقوق بالرباط ومنها حصل على الإجازة في القانون الخاص، وشهادة الأهلية لمزاولة المحاماة، ولم يكن هذا منه إلا جنون المعرفة ليس

إلا، ولم تكن له أي رغبة في معادرة التعليم التزاما لرغبة الشيخ الوالد. غير أنه وبعد سنوات من حصوله على إجازة القانون تغيرت أحوال التعليم وتردّى بتردّي أغلب المعلمين به ثقافيا وأخلاقيا، وقس عليه حتى الطلبة وصغار التلاميذ، فما كان من المعلم إلا أن غادره على مضض وخلافا لرغبة الوالد المرحوم ليلتحق بسلك المحاماة سنة 1979 حيث لا يزال محاميا ممارسا بالدار البيضاء. وقد رزق بولودين أسامة وهو حاصل على الإجازة في الحقوق، وعطيات وهي حاصلة على الإجازة في الاقتصاد.

أما ما ينوب الإنتاج فقد ضاع العمر سهيلا ولئن قيل :

إن الفتى من يقول ها أنذا ***** ليس الفتى من يقول كان أبي

فبعد ربه ماذا يقول عن نفسه إلا أنه لا يملك إلا لقول : هذا الرجل المعلمة كان أبي.

- الأستاذ عبد الرحيم:

ولد بالدار البيضاء سنة 1356 هـ - 1938 م تلقى دراسته عن معلمي مدرسة السنة، وتابع دراسته الثانوية بالمعهد المصري ثم مدارس محمد الخامس بالرباط فالقاهرة، وتابع دراسته الجامعية بالرباط إلى أن حصل على الإجازة في العلوم السياسية ثم دبلوم الدراسات العليا في القانون العام فرع العلوم السياسية. عمل بسلك التعليم الثانوي لفترة قصيرة، ثم التحق بمدرسة تكوين أطر وزارة الداخلية بالقنيطرة في أول فوج لها، وتخرج منها متفوقا من بين الأربعة الأوائل، وتقلد عدة مناصب بسلك رجال السلطة بوزارة الداخلية بصفته قائدا ثم باشا ثم قائدا ممتازا، وكان آخر مطافه أن حصل على التقاعد النسبي والتحق بالمحاماة وله من الأولاد أربعة ذكور تخرجوا من معاهد بأمريكا، وله بنت متخرجة في السبيل الإداري.

- المرحوم عبد الغني 1941_1968 م

ولد سنة 1941 م بالمدينة القديمة بالدار البيضاء. تلقى دروسه الابتدائية بمدرسة

السنة وأتم دراسته الثانوية بالمعهد المصري ومدارس محمد الخامس بالرباط، وبها تابع دراسته الجامعية بصفته طالبا منتسبا إلى أن حصل على الإجازة في العلوم القانونية بامتياز. اشتغل خلال دراسته الجامعية أستاذا بثانوية عبد الكريم لحلو، ثم غادر التعليم إلى مهنة المحاماة، وكانت المهنة يومذاك في أوائل عهدها بتخريج أول افواج المحامين والدفاع بالعربية بدل الفرنسية التي كانت لغة القضاء والدفاع يومذاك، فأعطى صورة مشرفة للمحامى باللغة العربية، لكن المنية عاجلته وهو في طريقه إلى مراكز إشراف ثمة سير، وذلك بتاريخ 1968. وقد أنجب ولدين لم يشدا عن نبوغ والدهما وجد هما، فالابن سعد دكتور مختص في الطب من فرنسا، والابن هشام خريج من أمريكا في الإعلاميات والتسيير الإداري

- الأستاذ النقيب عبد الواحد:

كان مولده بالمدينة الجديدة بالدار البيضاء بتاريخ 1943. تلقى دراسته الابتدائية بمدرسة السنة، ودراسه الثانوية بمعهد الأزهر، وقد التحق بكلية الحقوق ونال منها الإجازة في القانون الخاص اشتغل كغيره من إخوته في التعليم على سنن والده بثانوية المعهد البلدي للبنات وغادره بعد وفاة الوالد للعمل بالمحاماة، وكانت بدايته بالدار البيضاء، ثم انتقل منها إلى سطت حيث انتخب لفترة نقيب هيئة المحامين، وله في المهنة مؤلف تقيس بعنوان «قواعد المحاماة» وهو مطبوع ومشهور، وقد أنجب الولد وائل وهو دكتور في الصيدلة، والبنت ملاك وهي دكتورة في الطب أصلحهما الله.

- الأستاذ المحامي عبد الله

كان من مواليد عام 1946 بالمدينة الجديدة من الدار البيضاء. تابع دروسه الأولية وبعض الأقسام الثانوية بالدار البيضاء، كما تابع دروس الكفاءة في الحقوق ونال شهادتها، وعمل في سلك كتاب الضبط بإبتدائية أكادير، ولعصابته تابع الدراسة بكلية الحقوق بصفته طالبا منتسبا إلى أن حاز الإجازة في الحقوق. عين في سلك القضاء، فتقلب في منصبه ذاك قاضيا بالبروج والجديدة وقاضي التحقيق بسطت ثم قاضيا بسوق أربعا العرب وكانت آخر المطاف، ثم استقال من سلك القضاء ليتحق بمهنة المحاماة كباقي

أشقائه وهو يمارس حتى الآن.

- الأستاذ المحامي مصطفى:

وهو أصغر الأولاد الذكور للشيخ، ولد بالدار البيضاء سنة 1950 تلقى دراسته الأولية والثانوية والجامعية بالدار البيضاء، ونال الإجازة في الحقوق، اشتغل منذ 1978 بمهنة المحاماة بالدار البيضاء ولا يزال يمارس

- المرحوم الطالب أحمد:

ولد بالدار البيضاء بتاريخ 1933 حافظا للقرآن الكريم، ولم يتيسر له أن يغرف من معين علوم والده، وذلك لما كان عليه من مس خفيف، وكل ما كان منه في آخر حياته هو أدامته على السياحة، فما خلف ولا تزوج

- لطيفة من اللطائف وحسن الصدف

لعل القارىء وهو يتابع ترجمة أولاد الشيخ يلاحظ أنهم احترقوا التعليم في أول مشوارهم، ثم انتقلوا إلى مهنة المحاماة، ولي في ذلك خاطرة أطلع عليها القارىء. عله يوافقتي الرأي، فكما ذكرت عن الوالد الشيخ كان لا يرضى لنفسه إلا التعليم والوعظ والإرشاد، وفي سبيل اختياره ذاك رفض عرض القضاء عليه من الشيخ أبي شعيب الدكالي يوم كان وزيرا للعدل، وقد خاطبه الوزير في شأن خطة العدالة محتجا عليه بقوله تعالى: «ولا يضار كاتب ولا شهيد»، فرد عليه الوالد الشيخ ولا هي! فما خلقت إلا معلما ولا محيدا لي عنه. وكذلك كان مع أولاده فلم يكن يوافق أبيا منهم على اختيار أي حرفة غير التعليم، وقد حدث مرة في أوائل عهد المغرب بالإستقلال أن تقدم الأخ الأكبر الحسن سرا بطلب التعيين بخطة القضاء، فبلغ سر الطلب إلى الوالد، فما كان منه إلا أن نادى الحسن وقال له بيتي لا يأوي القضاء، فاخترين المكث فيه معلما ومفارقته قاضيا، فما كان من الأخ إلا أن أنصاع لإرادة الوالد وإرضائه. وكذلك كان باقي الأبناء، فلم يجرؤ أحد منهم أن يحترف غير التعليم قيد حياة الوالد، وبعد وفاته اختار بعضهم حرفا بعيدة عن التعليم ولكنهم جميعهم عادوا إلى حرفة لا تبعده

عن حرفة الفقهاء، قلن كان الفقه الإسلامي فقه الشرع، ففقه القانون فقه الوضع، ويجمع بينهما الكثير من العاصر فمن فقه الشرع إلى فقه القانون، والفقه حرفة عميد الأسرة وشيخها وقودتها، والإختيار هذا كان من جميع الإخوة ليس إختيار صدقة ولكنه إختيار له جذوره في التحليل النفسي لدى علماء النفس، والتأثير هذا أشبه ما يكون بالوراثي ويقولون: «ومن يشابه أباه فما ظلم» والتأثير بعض من تجلّه، فلاغرو في أن يعود الحمل الشارد إلى القطيع، وأن يحترف الأبناء حرفة الأب. لكن مع فارق ان الشيخ الأب كان على خلاف مع القانون الوضعي وله فيه مواخذات سجلها في بعض مؤلفاته. سامحنا الله من هذه المخالفة التي نقض مضاجعنا كلما ذكرناها.

- سيرة الشيخ في أهل بيته :

سيرة العلماء في بيوتهم كثر ما ينتشر عنها المرء بحجة انها خصوصيات لا يحق الإطلاع عليها، لكن فما دام العلماء هم ملك للمجتمع جميعه، سيما وهم الواعظون المرشدون للمجتمع، وما دام أن فائدة العلم العمل به فإنه يجب أن يكون المرشد أمثولة حتى يحصل المسترشدون به على تطبيق عملي من مرشدهم التزاما منه بما يأمر به من معروف وما ينهى به عن منكر، وبالتالي حتى يكون مثالا حقا يحتذى به، قول وفعل هو الإسلام الرفيع «وكم من العلماء لاصلة لحياتهم العامة بحياتهم الخاصة» وإنما هم يتعيشون بعلمهم وكفى. ومن هذا المنطلق أعرض شذرات من حياة الشيخ في بيته، وسلوكه مع جميع أفراد أسرته والذي في ذلك تبيان الحقيقة -والله يشهد- من غير مبالغات ولا تزيفات أو تحويرات، وذلك حتى يستنتج القارئ الرأي الأصوب -سلما أو إيجابا- في التزام الشيخ بما كان يبشر به ويعظ ويرشد. وأقتصر في شأنه على بعض الإرتسامات والخواطر للمثال.

- خاطرة أولى :

بلا حفظها القارئ في أن أسماء الأولاد من ذكور وإناث لم تتجاوز القولة المأثورة «خير الأسماء ماعبد وحمد»، فأسماء الذكور كلهم عابدة وحمادة كما سبق ذكرهم، اما أسماء الإناث فلم تتجاوز أسماء بنات الرسول (ص) فاطمة وزينب والزهراء واسم

والدته أمة واسم مرضعته حليلة السعدية، وهو من الشيخ الوالد الحب في الله وفي رسوله، وحب الرسول عنده ليس في الأمداح المغالية غير الشرعية، ولكن في إتباع سنن الرسول، وفي شرف التسمي بما عبد وحمد، أو بما اتخذ الرسول من أسماء تيمنا وتبركا بالتسمي بها.

- خاطرة ثانية

انه من شدة التزام الشيخ بالأخلاقيات الإسلامية ومناهضته للتقاليد المغربية المتنافية مع الدين والأخلاق، فقد أقام دارسكناه على مساحة أكبر، وأقام إلى جانبها دويرتين كل منهما ذات طابقين، وفتح من كل طابقين بابين يؤديان إلى الدار الكبرى، وكلما خوطب الشيخ في زواج إحدى بناته فلم يقلها إلا من طلبته لاغير، واشترط على الزوج السكنى بطابقين من الدويرتين، وذلك منه حفاظا على أخلاقيات بناته من السكن مع الجيران ما قد يفسد أخلاقهن ودينتهن، فكأن هن وأولادهن على صلة بامهاتهن وإخوتهن ووالدهن وقد يكملن حاجتهن ما هو موجود بالبيت الكبير لاغرو عليهن في ذلك. وكان أحد الأصهار يملك «تركها مغلقة ولم يرحل إليها إلا بعد وفاة الشيخ».

- خاطرة ثالثة

أن كان بيته محكمة، فلم يترك أهل البيت سدى يظلم هذا ذاك، أو لا يسأل الكبير عما فعله بالصغير كما هو حال تقاليد البيوتات المغربية، فقد يشكو الصغير الكبير إلى الوالد فيقيمها الشيخ محاكمة يحضرها المدعي والمدعى عليه، ويطلب بحضور الشهود فقد تكون إحدى النسوة أو البنات أو أحد الأولاد، أو بعض المساعدات في أ شغال البيت، والحكم إما أن يكون استمراع المدان للضحية، أو صلحا بين الطرفين، أو توبیخا وتأنیبا للمدان، وللطرفة أقول أنه مرة في محاكمة كهذه وقد حضرها أحد خاصته وكان رجلا فكها، فأنبرت للشهادة وأنا يومذاك في سن مبكرة، فعارض الحاضر بأن شهادتي لا تجوز، فاستفسره الوالد عن السبب القادح في الشهادة، فقال لأن الشاهد ساقطة أسنانه، وكنت يومذاك في سن تساقط الأسنان فضحك الجميع، أما أنا فما كان

مني إلا أن اجهت بالبكاء المر السقوط شهادتي.

- خاطرة رابعة -

أن كان الكل من أهل البيت لا يسمح أن يُسمع بينهم سباب قط حتى ولو على سبيل المزاح، وحدث لكاتبه وهو في طور حفظ القرآن الكريم على يد أحد القراء أن نهمني مغضبا أن «اقرأ لناك» فوجدتها سبة وإهانة منه فجئت الوالد الشيخ وأنا أبكي بكاء مرا أن «الطالب» سب أُمي بالقول «اقرأ لناك» فضحك الوالد وأجاب بأنني أقرأ لأُمي وأبي ليس غير، وشكوته مرة أخرى بأنه سبني بالقول «اقرأ أصباح لله» فضحك الوالد أيضا وأجاب بأن الصباح هو فعلا من صنع الله وملئ له وليس من صنع أي أحد ولا من ملئ.

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على التركيز والدقة من الشيخ في مدلول الكلام وليس في إلقائه على عواهنه.

- خاطرة خامسة -

حصل يوما أن فاخرت والدي -هزلاً- بالقول إن بلدي هتيفة أرض اللوز والجوز والزيتون والليامين، أما أرض أولاد سيدي بن داود - وهي مسقط رأس الوالدة - فلا تنبت إلا الدوم، وقد تناثر هذا إلى سمع الوالد دون أن أدري، فخرجت لتوه إلى قضاء بعض حاجيات البيت، وبعودتي استدعاني الوالد إلى الجلوس إلى جانبه ودعا الأخ الحسن إلى سرد الكراسي التي بين يديه عما كان قد تلقاه في غيبيتي من الوالد في فوائد الدوم، وقد تعرض فيه إلى فوائد الثبائية والظبية والصناعية، وأنا أصغي في خجل من نفسي ما عليه من مزيد، وفي النهاية أن كل ما قاله الوالد لي أن هذه هي فوائد الدوم الذي اعتبرته نقیصة في حق بلد والدتك، فأجبر خاطرها بالإعتذار ولا تعد لئله.

- خاطرة سادسة -

أن قد عمل الشيخ على تعليم زوجاته الثلاث تعليماً شفوياً، وكنّ يحفظن سوراً

عديدة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وقصائد من شعر الحكمة ودعوات من السنة النبوية، وكلهن على معتقد الشيخ غير متأثرات بالمعتقد الفاسدة والعادات الممحوجة التي لا يخلو منها بيت.

كما عمل على تعليم بناته في صغرهن تعليماً أولياً، فكنّ يقرآن ويكتبن، ويحفظن أجزاء من القرآن الكريم والأحاديث والقصائد والأدعية، حتى إن أحدهن وقد كانت على مستوى من التعليم قد ساعدت زوجها في إعدادة لحوض اختيارات الولوح لسلك التعليم.

وهذه شذرات من سلوكات الشيخ في أهل بيته وأسلوب تربيته الصالحة، وإن دل على شيء فإنما يدل على الالتزام والتشبث بالأخلاقيات، من حيث أن فائدة الأمر بالمعروف والعمل به.

جملة من المعروفين لدلي كاتبه من تلامذة الشيخ

للشيخ في اطوار مقامه بكل من زايان و قاس وأبي الجعد والدار البيضاء بصمات جلى من مذهبه السني ومن تلامذة كانوا له خير خلف في مذهبهم، وقد عرف عنهم مناصرة السنة النبوية والسلفية الصالحة، وكان من حرص الشيخ على ترسيخ السنة وتبذ الإعتقاد في أدعياء الولاية والصلاح أن غير أسماء بعض تلاميذه ممن يسمون بأسماء دفناء الأضرحة، وللمثال فأحدهم كان اسمه رجال فأسماء أحمد، وآخر كان اسمه العائدي فأسماء «أبو بكر»، وثالث كان اسمه التهامي فأسماء عبد الرحمن، ومن غير الممكن حصر عدد الطلبة الذين تتلمذوا على الشيخ طيلة حياته العامرة بالتفريس ونشر العلم، وذلك للجهل بهم وعدم وجود أي مستند اعتمد عليه في إحصائهم، ولكن كما يقال: «ما لا يمكن كله لا يترك كله أو بعضه»، ولذلك اقتصر على من بلغني انتسابه لمدرسة الشيخ أو عايشته أنا نفسي إيان تلمذته، أو تعرّف عليه في زيارته^{١١} بالإضافة إلى القصور البين في تراجمهم الموجزة دون تفصيل، والمعروف

مدرسة خنيفة

- الفقيه الحاج عباس التادلي رحمه الله

تلمذ على يد الشيخ بختيفرة ولازمه، وقد صاحبه إلى الديار المقدسة، وكان يسرد على الشيخ على متن الباعرة مناسك الحج حيث تطوع كعادته بتعليم الركاب الحاج مناسكهم، والطالب هذا كان كل أملة أن يقبر في مكة المكرمة، فاستجاب الله دعاءه ودفن بالأبطح.

- الفقيه العلامة السيد الحاج عبد الرحمن بلحاج النعماني:

وكان من أنجب تلاميذ الشيخ بختيفرة، وتأثر كثيرا بسنية شيخه ومنافحته المبتدعة، وقد عقد له مجالس وعظ وإرشاد في مساجد خنيفة، وكان شعلة في وطنيته، ومن أقطاب الحزب في تلكم الأصقاع التي حكمها الفرنسيون حكما عسكريا وطبقوا فيها الظهير البربري للحكم بالأعراف بدل أحكام الإسلام، وكان مما تعرض له من مضايقات أن وشى به باشا المدينة وقائد أحوازها إلى رئيس الدائرة الفرنسي، ويجلس جلسة الأحكام العرفية واجه رئيسها الفرنسي الفقيه بأنه ينشر الوطنية، فأجاب بأن كل ما بينه وبين الباشا والقائد أنهما تجانيان يقولان بأن صلاة الفاتحي تعدل خمسين ختمة من القرآن الكريم فكذبت في مجلسي هذه القولة، وهذه فتوى دينية، فاستنكر الفرنسي نفسه القولة تلك، وقال لا يمكن أن يكون كلام بشر كالقرآن، وأمر بإطلاق سراح الفقيه إلى حين استفتائه المجلس الشرعي الأعلى بالرباط.

- العلامة القاضي الشاعر المبدع السيد أحمد بن قاسم المنصوري:

وكان من أنجب تلامذة الشيخ، وأصله من مكناس، وكان ذا إطلاع واسع بمختلف فنون المعرفة، مما تكونت معه لديه ملكة شعرية خصبة، مارس خطة العدالة، وتولى القضاء في أهم المراكز، وكان من أبرز القضاة وعين في غير ما إقليم آخرها مراكش،

وكانت له مشاركات متميزة في كل عيد من أعياد العرش، إذ تجود قريحته بقصائد عصماء تجد لها صدى بين أدباء و شعراء تلك الفترة، وقد ألف في تاريخ المغرب بخصوص البلاد الزايرية، وأنشأ دواوين شعرية، وساعد بعض الدكاترة المؤرخين اللامعين-الآن- على جمع معلومات نفيسة عن تلكم الأصقاع، وكانت موضوع اطروحات متميزة. وقد استمر على محبة شيخه وزيارته الفينة بعد الأخرى يلتمس أدعيته الصالحة، ويؤدي فروض الإعراف بمشيخته له، وفضله عليه، ومجاذبه في العديد من المسائل العارضة رحمهما الله تعالى. وقد أبدى وأعاد في ذكر الشيخ وعلمه وجهاده في مؤلفه: «كباء العنبر من عظماء زايان وأطلس البربر».

- الفقيه الحاج علال التادلي:

من خيرة طلبة خنيفة هو كذلك، وكان من أجل الفقهاء وأتقى أولياء الله الصالحين، عاش عمره كله تزيها عفيفا قاتما، ووقف حياته على تعليم الصبية والإمامة إلى أن توفي-رحمه الله- وهو على ذلك، يموت المرء على ما عاش عليه، وقد قدمت سلفا أن أنابه شيخه لخلافته في تلاميذه وأهل بيته خلال غيابه لحج بيت الله الحرام، فأحسن الخلافة، وقد أدركته فوجدته على خلق الملائكة حتى لكانه ملاك يمشي بين الناس أسع الله عليه شأبيب رحمته.

وقس عليهم الفقيه السيد محمد بن ناصر الزايري والفقيه محمد السمعلي والفقيه محمد بن علي والحاج صالح الرواضي وكلهم طلبة مدرسة خنيفة.

- الفقيه السيد الجيلاني شقيق الشيخ

أخذ من العلم على يد شقيقه حفظا وافرا، وعند رحيل الشيخ إلى الدار البيضاء بقي الجيلاني هذا صحبة شقيقه محمد بمربرت ثم خنيفة بتعايان التجارة وتأتي البقية عنه بعد.

- الفقيه الأديب القاضي السيد محمد شقيق الشيخ

ولد سنة 1323 هـ - 1905م، عُرف من مختلف العلوم والفنون على يد شقيقه الشيخ بخنيفة ثم بفاس وبها تتلمذ على بعض مشايخ القرويين، فتميز بقلم سيال وفريجة شعرية فياضة، فظم الشعر في غير ما موضوع وغرض، وساجل الشعراء، وراسل جرائد وطنية، ومن سمو شاعريته أن نظم كتاب «الأزهار الطبية النثر في مبادئ العلوم العشر». وله جولات محمودية في الكثير من أغراض الشعر نثري على شذرات منها

قال في الشكوى من تردي أحوال القضاء :

قاض قضيت بها شهورا عدة *** لا الخصم يفهمني ولا أترابها
أقلقت من فجر وحمي تشاجر *** وسئمت من دس عليه رحابها
وكانني هود ولست بمرسل *** وكأنهم عاديتا طي عذابها
وقال في رثاء شقيقه الشيخ :

مصاب ليس بعده مصاب *** لذي الألباب إذ فقد الشهاب
ليبك كل ذي علم عليه *** فكم علم له ضم التراب
سقى الله الكريم تراه صوبا *** له من كل رضوان رصاب
ومن الطرف الشعرية أن قال في كاتب ضبط يحضر جلساته :
لم يأسعيد ألا تراك سعيد *** تشكو الشقاء وتكثر التنديد
هلا جعلت الاسم منك حقيقة *** ونأيت عن معنى الشقاء بعيد
فلتعتش في أفق السعادة بلبلًا *** غريدا بك يعشق التغيريد

باشر هو وشقيقه الجليلاني - بعد رحيل شقيقهما الشيخ عن فاس - التجارة في مريت ثم في خنيفرة، وقد نجح مشروعهما التجاري لكنهما كانا مراقبين من طرف السلطات المستعمرة ومكرهين من أهوانها المغاربة، إذ كانت المنطقة عسكرية تسودها الأحكام العرفية.

أما الشقيقان فكانا على أشد ما تكون عليه الوطنية وقد شاركا في تأسيس الحزب الوطني وفي اجتماعات أقطابه بفاس ومكناس، وكان السيد محمد يرأسل جرائد وطنية بمدينة الدار البيضاء بمقالات وطنية يوقعها باسم «بوحياتي» وهو جبل يطل على خنيفرة، وقد افتضح أمرهما، فوجدها الباشا والقائد فرصة للوشاية بهما لدى السلطات الفرنسية بتهمة الوطنية، فاعتقلا وسجنا معاً في د هليز تحت الأرض بقرية «الحمام» وسميت بالحمام تنكيتاً على شدة زهريهما، فما كان من الوالد وقد وافاه الخبر الأليم إلا أن أستنجد بمن توسط له لدى السلطان، وهو من تدخل لهما لدى الإقامة العامة، فأفرج عنهما بشرط مغادرة الناحية بمجرد الإفراج عنهما وعدم زيارتهما لها بالمرّة، فجاءهما الوالد وقدم بهما إلى الدار البيضاء صفر البدين، وقد ضاع منهما كل ما يملكان من تجارة ومن ديون لدى تجار التقسيط، ومن أنعام لدى شركائهم بالبادية، وغير هذا أقطع إذ أن مدة الحبس في القبو الرطب كان له أثر على صحة الأخوين فالجيلاني أصيب من جرّاته بداء الصدر (السل)، وعانى منه إلى أن كان السبب في وفاته سنة 1362 هـ، أما محمد فقد خرج من الحبس ذاك مصاباً بالربو (الضيق)، وبقي يعاني منها في باقي حياته.

علاقة شيخنا بالشيخ أبي شعيب الدكالي

وقد عانى شقيقا الشيخ ضائقة العيش، فلم يجد العم محمد بداً من الاستنجاد بالشيخ أبي شعيب، لما يربطه من أواصر العلم والاحترام بشيخنا، ومن باب تداعي المعاني وتوارد الخواطر «والشيء بالشيء يذكر» فإن ذكر الشيخ شعيب الدكالي يجرّلي بسط صلة شيخنا بهذا المعلمة الفذة في نصرة السنة في مغربنا، وقد وفد من الشرق العربي بأرائه تلك لما تشبّع به من أعلام السنة وأقطابها بمصر، وكان منفرداً في

دعوته وآرائه في وسط علمي لا تجد بينه إلهاماً مقلداً أو طريقاً مبتدعاً، وقد قبض الله اللقاء لهذين القطبين في السنة النبوية والإجتهدات الفقهية، ومحاربة الطريقة لقاء حميميا جمع بينهما لأول مرة، وكان ذلك لحسن الصدف بقاس ومحضر علمائها، ولا يخفى أن مجامع العلماء لا تخلو من مذكرات، وطرح مسائل فقهية وقتية، فكان الأمر كذلك ودارت مناقشات، وقد أجاد شيخنا وأفاد في سنتيه وإجتهداته ومحاربة الضلالات، مما أثار إعجاب الشيخ شعيب بوجود عالم متمكن ينافع عن السنة، ويناهض الضلالات بين علماء المغرب، وهم يومذاك ليس بينهم إلا مبتدع أو متصوف أو مقلد، ولم يخف إعترازه به، ولما انفرط الجمع أقسم على شيخنا أن يركب بدله البغلة مركبة الشيخ شعيب، وأخذ هو يمشي ورجلا إلى جانب المركوبة وهو يذاكر شيخنا أثناء المسير، ورجاه أن يزوره وقتما شاء فباب داره كما قال مفتوح في وجهه ليل نهار ولما تقلد الشيخ شعيب منصب وزير العدل، خاطب شيخنا في تعيينه بسلك القضاء فأبى، وخاطبه ثانية في تعيينه عدلا محتجا عليه بقوله تعالى: «ولا يقض كاتب ولا شهيد» فأجابيه ولا هذه، فما خلقت إلا معلما ولن أموت إلا كذلك.

وقد استجازه فيما يحده من منقول ومعقول فأجازه بعبارة كلها إجلال وتقدير وشهادة بعالية شيخنا، ويرحم الله الشيخ شعيب وهو على فراش المرض، إذ جاءه أحد عواده، وقد تأثر الزائر من وطأة المرض على الشيخ، فقال: أطال الله عمرك لأهل السنة فمن يبقى لهم بعدك - لا قدر الله - وأنت الأوحده، فرد الشيخ العليل بأن لا، فقد بقي فيكم الفقيه الحاج عبد الرحمن الننيقي.

ورجع بنا إلى شقيق الشيخ، فقد عرض عليه الشيخ شعيب خطة العدالة، لكن العلم طلبه التوسط لدى شقيقه الشيخ الذي عُرف عنه أنه يمانع في أي حرفة يحترفها ذووه عدا التعليم، فراسل الشيخ شعيب الوالد محتجا أترضى لأخيك بأن يمد يده للناس؟، فخضع الوالد وقيل على مضض، فمن يومذاك تولى العم هذا خطة العدالة، وسرعان ما نصبه القاضي الفقيه سيدي الهاشمي بنخضراء - وكان القاضي الأوحده للدار البيضاء - نائباً له، ونظراً لشيخوخة القاضي فقد دأب على فسح المجال للعلم

يخاطب على رسوم العدل، ويترأس جلسات الأحكام، وبقي العم على وطنيته وصلته بالحزب، يحضر متدياته ويحاضر بها في مناسبات يقيمها الحزب، فحاضر عن البلاد الزايرية، وحاضر بعيد مولد النبي بمحاضرة عنوانها «عقريه يتيم» ونظم قصيدة عصماء في الدار البيضاء كتب لها النشر، وغيره كثير، وكان المندوب الفرنسي المكلف بالمحاكم متضامنا من العم لوطنيته وأنفته إذ كان لا يتملق الرؤساء الفرنسيين ويتحاشى لقيامهم، فكان يقول عن العم بلسنته الفرنسية: «النتيقي إداري إداري لكنه وتني» ويعني أنه وطني، وقد وجدها فرصة تاريخ نفي محمد الخامس سنة 1953 فعزل العم من النيابة والعدالة ومكث على ذلك إلى حين استقلال المغرب، فأعيد إليه إعتباره بتعيينه قاضيا على خريبكة ووادي زم، فبني ملال، فتمنار فسطات وكان آخر اللطاف قاضيا بمراكش، وقد أجاز حياته الوظيفية قاضيا نزيها عادلا منصفاً لا يفتح باب بيته للعدل إلا يوم عيد، ولا يعلق باب مكتبه في وجه متقاض، ولا يناصر قويا على ضعيف، أو توصية رئيس له على حساب صاحب حق، وله في ذلك وقائع نتحاشى ذكرها تحباً للتطويل. وقد أحيل على التقاعد من سلك القضاء في متم سنة 1975 وجاء في قرار الإحالة بتوقيع وزير العدل الأستاذ عباس القيسي مايلي: ... لأعنتم هذه الفرصة لأعبر لكم عن مدى تقديري للجهود التي بذلتوها طيلة إلتسابكم للسك القضائي في إطار من التجرد والنزاهة والإخلاص، ولما برهنتم عنه باستمرار من كفاءة علمية متميزة وسلوك مثالي مما جعلكم دوما محط تقدير واحترام... انتهى

وقد وشح بوسام ملكي تقديرا لخدماته، والرجل يحق لايحيط بترجمة حياته الحافلة بالإسفر كتاب، ويتقاعدته اقترحت عليه وزارة العدل العودة إلى ممارسة العدالة، فأبى قائلا لم أعد أصلح مع هذا السن إلا للإستعداد للأخرة والتكفير عما سبق، لا أن أستزيد الذنوب والآثام، وبقي على ذلك ملازما داره يزوره بعض خاصة معارفه فيبقون الساعات الطوال على المناقشات والمذكرات العلمية والسياسية وتحاذب أطراف الحد يث وغابر الذكريات، وذلك إلى أن أشتدت عليه وطأة المرض فوفاه الأجل المحتوم رحمه الله برحمته الواسعة

- الفقيه أبي يعزى الرواضى

وهو من أخلص تلامذة الشيخ لازمه بختيرة، وحصل أن أسره الفرنسيون خلال المقاومة. وقد رحل هو الآخر إلى الدار البيضاء واستوطنها، غير أنه اشتغل بالتجارة وأسس مطاحن للحبوب في أحياء من المدينة، ولاحترافه ذلك كان من خفة روح بعض أصدقائه يتادونه كصاحب أحد الأضرحة «مولاي بو عزة بيض التراب» تنكيتا على معتقد العامة ودعوتهم «مولاي بو عزة حمر التراب»، وكان خليلا ملازما لزيارة شيخه شقيق الشيخ، كما كان ملازما لزيارة شيخه الأكبر والجلوس إليه للمؤانسة والمذاكرة، وقد عرف عنه اهتمام كبير بالسياسة، وخدمة الوطنية.

مدرسة أبي الجعد

فكما أسلفت في تعداد المدن التي أقام بها الشيخ، وما أعجزه فيها في سبيل الدعوة والتعليم، فقد عرفنا أنه يوم أن تأكد من علاقة الشيخ عبد الحى الكتاني بالسلطات الفرنسية رحل عن قاس في سرية تامة خوفا من بطش الكتاني، فإقام بابي جعد حيث الزاوية الشراوية، وبجامع المولى سليمان جعل منه قرويين صغرى إذ في كل سارية منه مجلس من مجالس العلم، يجلس لأحداها الشيخ نفسه بينما المجالس الأخرى يقوم عليها شقيقه الفقيه سيدي محمد وبعض تلمذ الشيخ، وقد اجتمع عليهم طلاب علم كثيرون ومن غير استقصائهم رغم قصر مدة الإقامة كان منهم الآتون :

- الفقيه السيد عبد المالك الشراوى :

من سلالة الزاوية الشراوية تتلمذ على الشيخ، وتولى خطة العدالة ثم النيابة عن بعض قضاة المدينة، وقد تطوع بأداء دروس وعظ وإرشاد بمساجد أبي الجعد، غير أن ابن عم له وكان قاضيا بابي الجعد غار منه فتنه من التدريس بحجة أنه لا يتوفر على أي شهادة علمية، فاستجذ بالشيخ فاجازه بإشهاد منه على عالميته، فسمحت له سلطات المدينة بمباشرة التدريس. وكان يزوره الشيخ بابي الجعد فيكرم وفادته،

ويعتز بزيارته.

- الفقيه السيد محمد السموني.

أخذ أولياته عن الشيخ بابي الجعد، ثم ألتحق بالقرويين لإتمام دراسته، قام بالتدريس، وأسس مدرسة حرة بابي الجعد وتولى الخطابة بالمسجد الجامع.

- الفقيه الجنيد .

أخذ عن الشيخ وتلمذ عليه، وقد تولى -بعد- نظارة الأحباس والإمامة بابي الجعد، وكان رجل نقوى وصلاح. اسما على مسمى.

مدرسة الدار البيضاء

فبالدار البيضاء أفرد فيها الشيخ مسجدا واسعا من أرضية داره وقد كانت بالمدينة القديمة يحي يدعى (فريفة الأولاد هيو)، وزود المسجد بخزانات خشبية صغرى دقيقة في جزء من جدار المسجد تخص كل خزانة طالبا من الطلبة الأفاقين يحفظ فيها حاجاته ويقتل عليها، أما الطلبة المقيمون فيترددون بين المدرسة وبيوتهم، كما كان المسجد مزودا بسدة علوية يحفظ فيها كل طالب غطاءه ووطاءه، فإذا ماجن الليل بسطوا أفرشتهم على طول المسجد وعرضه وباتوا عليها إلى ما قبيل أذان الفجر، وللمسجد مرفق للنظافة دار الوضوء .

وتقام مجالس الدرس بعضها بذات المسجد، والبعض الآخر مما يضيّق عنه المسجد هذا تقام بجامع الشلوح وهو قريب من دار الشيخ، وبحق فقد كانت حلقات الدروس بالمسجد في مختلف المستويات أشبه بجامعة قرويين صغرى، كما وصفها الكاتب المرحوم أحمد زياد في بعض كتاباته الصحفية، فقبيل أذان الفجر يستيقظ الطلبة، ويلبّون أفرشتهم، ثم يتوضّؤون استعدادا للصلاة، وينزل الشيخ من داره ليؤم بهم صلاة الصبح وبعد قراءة الحزب جماعة يقام أول درس من الشيخ، وكان يحضره فضلا

عن الطلبة بعض فضلاء أعيان الدار البيضاء ممن أحبوا الشيخ واعتنقوا مذهبه السني وتنا صروه في دعوته.

فالدار البيضاء هي التي عرفت أكبر عدد تلامذة الشيخ، وإن حصر عددهم غير ممكن نظرا لكثرتهم ولجهل كاتبه بهم عدا من ذكر، فإليكُم المعروف لديه منهم :

- القاضي العلامة السيد الحاج هاشم المعروف من أحب تلامذة الشيخ تولى العدالة ثم القضاء والإمامة والخطابة ومن مؤلفاته، «تاريخ البيضاء»، وبه ذكر للشيخ.

- القاضي السيد محمد بن سعيد الزاياتي، من الطلبة الأفاقين قدم من جبال قبائل زايان، وقد تبغ في دراسته. فتولى العدالة بالدار البيضاء ثم القضاء في أقاليم مختلفة.

- المرحوم الأستاذ محمد بن عبيد التطواني، رحل عن تطوان مغضبا، ونزل بالدار البيضاء لدى أخواله، ويدعون بلوقاش وكانوا رجال صناعة، فأخذ خاله إلى الشيخ للدرس والتعلم، فتلمذ على الشيخ ردحا طويلا، ثم رحل للدراسة بالقاهرة، حيث أجري له بها اختبار مستوفى بالأقسام النهائية بكلية الشريعة هناك، وذلك للمستوى الدراسي الذي حصل عليه من تلمذته على الشيخ، وقد كان من أعضاء لجنة تحرير المغرب العربي إلى جانب رئيسها بطل الريف بالقاهرة وعضوية الحبيب بورقيبة، وفي رحلة جوية أقلت بعض زعماء العالم العربي لحضور مؤتمر بكراتشي بالباكستان، سقطت الطائرة فكان بنعمود أحد ضحايا الحادثة رحمه الله.

- العلامة المؤرخ سيدي محمد العبيدي الكانوني، تلمذ على الشيخ بفاس وصحبه سنة 1338 هـ 1920 م في سباحة إلى قبائل زايان ثم صحب الشيخ إلى مراكش سنة 1341 هـ 1923 م، وفي هذا قال العلامة الأديب محمد المختار السوسي في كتابه، «ذكريات» في كلامه عن الفقيه الكانوني مانصه:

«في سنة 1341 ورد الأستاذ التيفي > (يعني الشيخ) نزول البيضاء اليوم إلى الحمراء مع ثلة من أصحابه وأحسب أن من بينهم الأخ الكانوني هذا فيكون اتصالا

به من تلك السنة، وقد ساجلت أخوا للاستاذ (هو محمد شقيق الشيخ) قوافي لفتت الأستاذ ومن معه إلى».

وفي هذا الباب أيضا قال الدكتور محمد بنشرية في الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي بتاريخ يونيو 1988 وبخصوص الفقيه الكانوني قال عنه: «ومن أبرز شيوخه أبو زيد عبد الرحمن التيفي وقد أطال الفقيه الكانوني في ترجمته، وكان معجبا غاية الإحسان به، مما جاء في ترجمته قوله: ((لازمته بفاس سفرا وحضرا، قرأت عليه طرفا له بال من صحيح البخاري والشمال وجمع الجوامع ونحو النصف من التلخيص والتحفة والمختصر والألفية ورسالة العقد برمتها، ومجالس فن التفسير وصحيح مسلم وغير ذلك مما سمعناه من فن مجالسه)).»

وبرجوعه إلى موطنه مدينة أسفي انخرط في سلك العدالة، وتولى الإمامة والوعظ والإرشاد وقد انخرط في الحزب الوطني - يومذاك - فعزل من العدالة ونفي إلى الدار البيضاء حيث تعاطى للتدريس بها، وكان لا يقتر عن زيارة شيخه إلى أن وافته المنية تغمد الله برحمته.

وللعلامة الكانوني كتاب نفيس في تاريخ أسفي أسماه «أسفي وما إليه قديما وحديثا» وله كذلك مؤلف عنوانه «الرياضة في الإسلام»، ومؤلف بعنوان «تراجم الرجال». وقد أهدى مؤلفه الأخير إلى الحسن ابن الشيخ، وكان الإهداء بخط يده كالتالي:

((هدية من مؤلفه للفقيه الأديب النبيل أبي علي الشريف السيد حسن ابن شيخنا الإمام الهمام ناشر اعلام السنة والدين أبي زيد سيدي عبد الرحمن بن محمد التيفي البيضاء الجعفري النسب، كما يأذن مؤلفه للمهدي إليه في تحمل جميع مؤلفاته ومروياته. في 18 شوال 1356))

- الأديب الشاعر محمد بن عبد القادر الدكالي، تلمذ على الشيخ ونبغ في دراسته، وبترجوه اخترف خطة العدالة بالدار البيضاء، وقد كان شاعرا مبدعا يرتحل

الشعر ويساجل به، وله في النثر قلم سيال.

- الأستاذ محمد الضرباني الحداوي، من أنجب تلامذة الشيخ وأذكاهم، وكان ملماً باللغة الفرنسية، وقد ناظر غير واحد من أذعياء الصلاح والولاية بما أخذه عن شيخه وعلى رأسهم الفقيه الرفاعي الدكالي، ونشرت مناظراته تلك بإحدى جرائد الدار البيضاء تاريخذاك، وكان رجل تعليم بحق إذ أسس مدرسة تعليمية عصرية بالمدينة القديمة في أول عهد لتأسيس المدارس الوطنية بالدار البيضاء، وعمل على تطويرها أسلوباً وبنية، وقد أسماها « المدرسة السنية »

- الفقيه الحاج عبد العزيز الدكالي، التحق بمعهد الشيخ من أول عهد له بالدار البيضاء، وكان بقوة شخصيته المادية أن تزعم الطلبة، وقد أخذ منه الشيخ ساعده الأمين في قضاء مآربه وحاجيات الطلبة، كما كان يقوم نيابة عنه أثناء غيابه أو توعك صحته بخطبة الجمعة، ويوم إن لم يبق للمدرسة العتيقة رواد أسس الشيخ مدرسة حديثة سنة 1947 كلف الشيخ تلميذه هذا بإدارتها إلى جانب ابنه الحسن. تزوج أخته للشيخ وقد أنجبت منه ذكورا وإناثا منهم الأستاذتان جميلة ونعيمة مجازتان، والمستشارة بالمجلس الأعلى الدكتوراة بهيجة، والسيد أبو بكر رجل أعمال...

- الأستاذ عبد الغني خولان، الطالب هذا من التلاميذ الأفاقين قدم من إحدى القبائل الزايرية، ومن إحدى أسرها من تتلمذوا وناصروا الشيخ بتلك الاصقاع أيام المقاومة، لازم الشيخ منذ نعومة أظفاره وأخذ عنه، وقد اشتغل بالتدريس بمختلف المدارس العمومية - تدريسا وإدارة - إلى أن تقاعد، تزوج إحدى بنات الشيخ وكانت رحمها الله من النجابة الشأو الكبير، وقد ساعدت زوجها في معارفه.

- العدل السيد أحمد السعيد المصري لازم الشيخ وأخذ عنه وكان يسمى « رجال » تبركا من والديه باسم الشيخ رجال، وقد غير الشيخ اسمه بأحمد، كما فعل مع الكثير من تلاميذه ممن يحملون أسماء ديني الأضرحة وأذعياء الولاية، انخرط في سلك التعليم الحر ثم تولى خطة العدالة، وقد عمل على نشر الوطنية وتنظيم خلايا الحزب بالدار البيضاء.

- الفقيه العدل السيد محمد بلقانية، من أجل تلاميذ الشيخ ومحبيه، وهو من البيوتات البيضاء الكبرى، عمل في خطة العدالة.

- السيد الحاج عابد السوسي، وكان من خاصة الشيخ وملازميه انسلخ عن الدرقاوية، وناصر السنة ونشر أفكار الشيخ وفتاويه وكان أكثر الناس عونا للشيخ في حياته المعاشية هو وشريكه الحاج محمد بلحاج العيسى وكان هذا الأخير أشد الناس تمسكا بأراء الشيخ ومن أكثرهم محبة وتعلقا به. وقد انسلخ هو الآخر من الطائفة التجانية.

- السيد أبو بكر الحريري، كان صديقا حميميا للولد البكر للشيخ المرحوم السيد أحمد، وهو من كان السبب في التحاقه بحلقات الدرس، واسمه الحقيقي العايدي تبركا من والديه باسم دفين ضريح قرية سيدي العايدي القريبة من سطات، لكن الشيخ لسنته استبدل اسمه من العايدي إلى أبي بكر فلم يعد يسمى إلا به، نبغ في دراسته وحصل على قسط وافر من مختلف فنون المعرفة، وبرز خاصة في الأدبيات فكان يرتجل الشعر ويساجل أقرانه فيه، ومن ذلك نسوق للقارئ تنقلا من مساجلاته : وزيادة في النقل الأمين، أنسخ حرفيا ماجاء في بعض كتابات سيدي أحمد الابن البكر للشيخ قال كنا مجتمعين، فقال بعض الطلبة هلموا نتساجل (وهم محمد بن عبد القادر وأبو بكر الحريري والأخ أحمد) وألزموني تواضعا منهم أن أفتح ولم أكن أهلا، وكان بين أيدينا ديوان امرئ القيس فاشتروا أن يكون المقول فيه:

فقلت: عليك بديوان ابن حجر الحلال

فقال أبو بكر: لكي تحتوي مابه وتفصل

فقال ابن عبد القادر: قتيل القيصر التي جل ملكها.

فقلت: دفين انقر حين سُم من أغرل

وزدت: رفيق فتاة من بنات ملوكهم

أبو بكر : وما دجهن دائما ومدلل .

وزاد : وعافر ناقت لهن لتنجلي

ابن عبد القادر : سماحته ونزع كور محمل

وزاد : فأكرهن بالشحوم التي غدت

فقلت : لهن كأنها مهوور لقتل

فقالوا : رجوعا إلى الديوان

فقلت : عكوف نصيحة على منهل القريض

أبو بكر : ولا تك منيتي عليه يمزول

لكن التلميذ هذا اشتغل بالتجارة والفلاحة، وبقي على محبة شيخه وزيارته له

- الأستاذ إبراهيم بنغزلة السرعيني :

من أول رحلات التعليم العصري الوطني الحر، درس على الشيخ وابنه الحسن وأخذ عنهما، وألتحق أواخر الأربعينات مدرسا بالتعليم العربي الحر، فعمل معلما بمدرسة الفلاح ثم مدرسة المعلم أبي شعيب الأزموري ثم قضى بقية حياته الوظيفية في التعليم العمومي إلى أن تقاعد، كما انتخب في فترة انتخابية عضوا جماعيا.

- القاضي الحاج عبد الله السالمي من الاصول البيضاء، درس على الشيخ، وكان يعتز بمشيخته ويدأب على زيارة شيخه كل مناسبة عيد تولى القضاء بعد الإستقلال فلمع نجمه لعدالته وسداد أحكامه.

-الأستاذ الموسيقار أحمد البيضاوي، تتلمذ على الشيخ وكان نابغة في التلقي، ذا ذاكرة واسعة، وحافظة قوية جذبت الموسيقى فكان من أوائل المطربين، وألتحق بالقصر الملكي وترأس جوق الطرب، وله إبداعات موسيقية أدى أغلبها بلغة

عربية سليمة، وسئل صحفيا وإذاعيا عن فصاحة لسانه، فأجاب إنه يقبل دراسته المثينة للغة العربية لدى الشيخ.

ويوم أن تم توقيف الشيخ عن عقد مجالسه بالمسجد المحمدي كما سيذكر في باب (صلة الشيخ بالأحزاب الوطنية) أسلفت واستجد الشيخ بالملك محمد بن يوسف وحضر لدى جلالته بالقصر بالرباط، نذبه الملك إلى المكث ضيفا على القصر لبضعة أيام لكن البيضاوي التمس من فضل الملك أن ينزل الشيخ عنده لرد بعض دين تلمذته على الشيخ، فنزل فعلا ببيت البيضاوي لثلاثة أيام محاطا بالتجيل والاکرام.

وكم من مرة كان البيضاوي مرسلا من السلطان سيدي محمد بن يوسف إلى الشيخ لاستفتائه في نازلة من النوازل.

- الأستاذ محمد الشاتي، أخذ عن الشيخ وكان يعتز بتلمذته عليه، وهو من الرعيل الأول الذي عمل بالتعليم الحر إذ كان مديرا للمدرسة الفلاح ثم مديرا للمدرسة المعلم أبي شعيب الأزموري وهما من أول المؤسسات التعليمية العربية في المغرب المناهضة للفرانكفونية والسلطات الإستعمارية، كما كان من أقطاب الوطنية بالدار البيضاء.

- الحاج عمر السرعيني، تتلمذ على الشيخ باقتراح منه، وقد صاهره الشيخ بتزويجه ابنة أخت له، وكان الرجل شعلة متقدة في الوطنية، خدم الحرب خدمة جلى، ويوم أن نفي محمد بن يوسف كان من أبرز من أوقد نار المقاومة بالدار البيضاء، وقد عرضه ذلك غير ما مرة للإعتقال والمعاماة وبإعلان الإستقلال عين قائدا لكنه سرعان ما اعتزل، وبقي على ذلك إلى أن وافاه الأجل المحتوم. وقد صاهره الفقيه البصري بالزواج من ابنة للسرعيني، وله الولد سيدي عبد اللطيف تقلب في العديد من الوظائف منذ فجر الإستقلال وكان من الرعيل الأول لمثقفي الشباب إذ تابع دراسته بالانجلترا.

والقائمة طويلة وطويلة جدا، ولا يكفي مجلد في استقصاء اسمائهم وذكر شذرات من حياتهم عدا من تتلمذ عليه شقويا من عامة الناس وهم كثيرون عن الإحصاء،

وقد نبغ فيهم العديد من بلغوا شأوا بعيدا في التحصيل، حتى أنه لو سمع أحدهم وهو يناقش في تازلة من التوازل حسيته أحد العلماء وكانوا إلى جانب ذلك انتصارا للشيخ يعضدونه ويناصرونه وينافحون عنه أهل الطريقة وسدنة الأضرحة.

وطنياته

كانت وطنية صادقة، ومؤطرة بالأحكام الشرعية وخاضعة لها، وليست وطنية متحللة من كل القيود كما هو حال وطنيات الكثير من الشعوب المستعمرة أو الوطنيات الثورية، فمن جهة كانت وطنية الشيخ خاضعة للأحكام الشرعية، ومن جهة أخرى لم تكن ثورية متحللة من كل القيود في تحميس الشعب وإثارته بالتوهم والوعود الرائقة والإفراء على الشرع الخفيف، وفي هذا الصدد سأقتصر على ذكر وقائع بارزة في حياة الشيخ تتجلى منها الوطنية الصادقة المتزنة المضيطة بقواعد الإسلام وأحكامه، فإليك موهبا مختصرة صادقة حكيمة شرعية:

- أول وطنياته قد فجرها فيه الإحتلال الفرنسي والشيخ في عتفوان شبابه، وناهيكم البلاد الحسن الذي بذله إيمان المقاومة الحقة للإكتساح الفرنسي للبلاد الزايرية بغية فرض الحماية، فقاوم بالحماس الذي يذكيه في نفوس المجاهدين وتذكيرهم بما أعد الله للمجاهدين من الشهادة ونعيم الجنة، وبإخترافه لصنوف المجاهد بن يهلل ويكبر ويرفع صوته بالأشعار الحماسية، وإمامته المقاومين في الصلوات الخمس، هذا جانب وجانب آخر أن كان الشيخ وتلاميذه جميعهم مسلحين بالبنادق يهاجمون ويدافعون، وقد أصيب الشيخ في المعركة إحدى المرات كما أصيب بعض تلاميذه، وأسر البعض فكانت لوحة مشرقة في حياة الشيخ في بداية مشواره، وكانت يحق حياة جهاد وثقافة لمحو الأمية والجهل والقتل، وجهاد سلاح لمقاومة المستعمر الغاشم، ويصدق فيهم القول حملة القلم والسلاح، وتفهوم العصر كان الشيخ «عرب المقاومة».

- ومن أوليات وطنياته وهو بفاس، وقد آواه الشيخ عبد الحي الكتاني، لكن شيخنا في قرية من الشيخ الكتاني وإطلاعه على خباياه، أصبح الشيخ يعايش الكتاني مرغما خوفا من أن يشي به لدى الفرنسيين، وخاتمة المطاف أن عرض الكتاني على الشيخ

الوساطة بين الفرنسيين وباقي رجال المقاومة الزايرية، ومن يومذاك انكشفت حقيقة شيخ الطريقة فوطن شيخنا نفسه للبعد عن شيخ مسلم يدعي الصوفية والعلم ويتعاون مع الكفرة المحتلين، وكان منه رد فعل حاقدا لفراق الشيخ له والبعد عنه، فكم من مرة وشى به إلى الفرنسيين بأنه من ثوار زايان ومن دعاة الوطنية وفي أثناء الأزمة بين القصر الملكي والإقامة العامة سنة 1953، وجدها فرصة، وما كان منه إلا أن وشى بالشيخ لدى سلطات الحماية، على أن شيخنا سبقه في سياحته لتنبية الناس ونشر الوطنية بينهم، وإفساد قرائه عليه وأنه من مقاومي زايان-سابقا- وأنه هو وشقيقه أبعدتهما السلطات من غنيفة لوطنيتهما. ولكن الله سلم، «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» وقد سبق ذكر الوشايات الحاقدة التي كادت أحداها أن تعصف بشيخنا إلى المنفى لكن الله سلم، وللعبد رب يحميه.

- ويوم أن استشرى أمر المؤامرة وأخذت الوفود تتقاطر على القصر الملكي للتوقيع على عرائض مساندة ملك البلاد واستنكار ما يبيتته الخونة بعية الإقامة العامة، كان الشيخ ممن قصد القصر من الدار البيضاء إلى الرباط في ظروف جد مخوفة، إذ كان الفرنسيون يتريصون بالوافدين، فما توانى الشيخ ولا خنس، وكان طيلة الرحلة لا يفتتر لسانه عن الحسيلة وذكر اللطيف.

- وفي الإعداد لنفي الملك محمد الخامس والعمل على استقطاب الجموع لتنفيذ المؤامرة الدينية، ومن ضمنهم علماء سوء، بعث الباشا الكلاوي إلى شيخنا برجل من خواصه يدعى الحاج هشوم يطلب الشيخ الحضور إليه بقصره بالدار البيضاء، فأبى الاستجابة للحضور لديه متعللا بتوكل صحته، وبعد ما بلغ الباشا اعتذار الشيخ عاد الرسول إلى الشيخ بأن الباشا يستأذنه في الحضور شخصيا إلى بيت الشيخ، وعند هذا الحد لم يبق له من عذر إلا أن يفصح عن أنه رجل علم ولا دخل له في السياسة، وطلب إعفائه من الحضور لديه، وكان هذا منه سلوكا وطنيا حكيما ومن باب حسن التخلص.

ومن وطنيته أن كان دوما في مجالسه وخطب الجمعة مراقبا من مخبرين مغاربة كانوا في خدمة الشرطة الفرنسية السرية، وقد قبض الله له واحدا منهم كان في أول عهد

بالدار البيضاء قد جاء به أقاربه إلى الشيخ ليلتحق بحلقات الدرس لديه، فأرجأ لإقتناء كتب الدراسة وسماعها له، وبعد فترة التقى الشيخ بالقرب فسأله عن التلميذ فأجاب الرجل الشيخ بأن لم يبق فيه فائدة فقد عاش السلفية ولم يعد يفارق «الحلافتية»، إذ أصبح «بياعاً» أي عيناً من عيون المخبرين الفرنسيين قبل أن يصبح موظفاً لديهم مخبراً، فلهذه الصلة وللإحترام التي تكنه أسرته للشيخ كان كلما أمر بشيء يخص الشيخ إلا وجاء إليه لتسبيه حتى يتخذ احتياطاته.

- صلته بالأحزاب الوطنية:

لعل الشيخ أسدى الكثير للوطنية، إذ كانت دعواه إلى نبذ الحرافات والخزعات قد رفعت الغشاوة عن أعين الناس، وكان يربط ذلك بتأخر المسلمين وما تجرؤ المستعمر على اكتساح البلاد إلا لما عَمَّها الجهل وتعلقت بالكرامات الحرافية، وكان يضرب لذلك المثال بأفعال بعض أعداء الصلاح والقطبانية، ويستدل بالكثير من المعطيات أن بعضهم كان عوناً للكفار،⁽¹²⁾ وغيره كثير مما كان تربة خصبة لإقبال الناس على دعوة الأحزاب، سيما وقد جعلت من السلفية منطلقها، فكان الكثير من تلاميذ الشيخ نواة تكوين الأحزاب في الدار البيضاء وفي غيرها فمنهم مسيروون ومكونون لخلايا حزبية، وكان بعضهم من المقاومة بعد نفي الملك محمد بن يوسف وأتمشى ذكر أسمائهم لما صدر عنهم في حق الشيخ. وقد أبى هؤلاء التلاميذ على الشيخ إلا أن يتخرط في الحزب فكان يتمتع عليهم ويحاجهم بأن العالم أبعد الناس عن التحزب والتحيز، لأنه للجميع ومع الحق أينما كان ومع من كان، أما إذا أدخل الشرقة فما عليه إلا أن يقتي للحزب بما يريد ولا يعارضه، وهو دأب كثير من العلماء ممن دجنهم الأحزاب، فلم تعد لهم شخصية مستقلة حرة بل أصبحوا بوقاً للحزب فيما يوافق أحكام الدين وفيما لا يوافق.

(12) وهذه إحدى شهادات شاهد من أهلها، وهو دبلوماسي فرنسي يدعى «باربان ريشيت» قام برحلة إلى المغرب أيام النوازل عبد العزيز فكان من أحد القضاة وافية مشهورة: «والشريف... أكبر الأبناء الخمسة خلفاً الذي توفي سنة 1892 وكانني شخصية في الإمبراطورية بعد السلطان، وكان يحضر من الساج الذين يملكون أطراف ليلته وقد عهد لي بالغرب من الأوربيين... ونفادهم الشاهر حتى أقبل على تعلق زوجته وعزيمه على الاقتراض بالفرنسية... فلم يجد بداً من الاستعانة بفرنسا التي نقضته».

وقد كان للشيخ علاقة طيبة بحزب الشورى والإستقلال ويدعى من طرفه لكل تظاهرة يقيمها كحضوره تدشين مدرسة الأمير مولاي الحسن، وكانت جريدة الرأي العام تُرسل للشيخ مجاناً، وقد كتب عن ترجمة الشيخ الأستاذ إدريس الكتاني وهو من أقطاب الحزب يومذاك.

وقد كانت للشيخ علاقة حميمة بحزب الإستقلال وبالكثير من أقطابه ممن تتلمذوا عليه، وكان ممن حضر مجالسه من المناصرين للدعوة، ولئن كان الحزب قد بنى دعوته على السلفية فقد كان الشيخ من أكبر الدعاة إليها، غير أن الذي أقسد هذه العلاقة هو أن أقطاب الحزب كان ديدانهم يومذاك أن لا يرضوا عن أحد إلا إذا انخرط في الحزب، أما المعارض أو مجرد محايد فينتع بالخيانة ويشنع عليه سامحهم الله، سيما والشيخ كان لا يغض الطرف عما يكون منافياً لشرعية الإسلام، فعلى سبيل المثال كانت له في مناصرة الحجاب مناظرات مع علماء الحزب، ويحضرني بصدده أن جمع الحزب على الشيخ علماء الحزب للمناظرة في شأن الحجاب، فدارت المناقشة على أشدها بين الطرفين، وفي آخر المطاف ختم الشيخ كلامه بالقول اتقوا الله في نساء المغرب وما مستجرون عليه من بلايا بتفريح المرأة وتبرجها، وباللهجة العامية قال: «الله يجربكم» فكان أحدهم وقد بعث بيته للدراسة بفرنسا أن خالته مسيحية، أما ثانيهم فقد خاللت ابنته أحد وزراء أول عهد بالاستقلال ورافقته في سيارته وقد انقلبت بهما السيارة وكانت فضيحة استجيا لها من بقيت فيه حمية وغيره.

وأذكر وأنا غلام رافقت أخي الحسن وقد أمرنا والدنا الشيخ لحضور أحد التجمعات على الزعيم سيدي علال الفاسي إثر رجوعه من منفاه، وكان التجمع بدار بنفلاح بالمدينة القديمة، وتقدمنا من الزعيم معتذرين عن عدم حضور الوالد شخصياً، فما كان من الزعيم إلا أن قال أنا من يجب عليّ زيارته، فعلاً فبعد أيام، زار الزعيم الشيخ في بيته زيارة حميمة من عالم لعالم، وخرج لزيارة مدرسة السنة وكانت في طور البناء وهي المدرسة العصرية التي أسسها الشيخ بعد انقراط المدرسة القديمة في عطاها التقليدي، كما تعددت زيارة الشيخ محمد بلعربي العلوي، للمذاكرة في العديد

فما يشغل أهل العلم يومذاك وقد كانت لشيوخنا دعوات على أن تُبنى الحزبية على مقاييس إسلامية حتى يباركها الله من عنده، فيستكر أن كيف تجتمع جموع الحزب الكبراء منهم والماديون لفترة ينفرط معها وقت الصلاة ولا من يقوم لها، وأن كيف ونحن نعماني من العمل على محاربة المعتقادات الخرافية، فإذا بالحزب يصطنع كل فترة وأخرى أكاذيب أو خرافة تعود بالعقول إلى التخريف والتوهيم، فمن أكذوبة أنه بمجرد الاستقلال فينبال كل فرد مغربي 3000 فرنك يوميا من ريع بيع القوسقاط، إلى التوهيم بأن صورة محمد بن يوسف متجلية في القمر، وقس ما قيل على ما لم يقل، بل يريدها سياسة حزبية مثالية تلزم شريعة الإسلام لا افتراء فيها على الدهماء والنجوة فيها إلى وسائل تضليلية واستغلالية لبسطة الناس. ومن أجل استقطابهم...

ومن الخلافات أن كان مجلس الدرس للشيخ بالجامع المحمدي أكبر مجلس لما يجتمع عليه من خلق، وكان كلما زار الشيخ محمد بلعربي العلوي الدار البيضاء إلا وطلب الحزب من الشيخ أن يخلو له الجامع ليتفرد بمجلسه، فكان يرحب بذلك ويتخلل للشيخ العلوي، غير أنه في بعض المرات يقدم الشيخ المكّي الناصري وهو يومذاك زعيم حزب الوحدة بطنجة إلى الدار البيضاء وحتى يقيم مجلسه بذات الجامع يطلب من الشيخ أن يسمح له بالانفراد بالجامع، فكان الشيخ لا يتردد في السماح له كذلك.

وهذا ما أثار حفيظة الحزب بتحريض الشيخ على عدم السماح له بذلك، فتساءل الشيخ هل الشيخ الناصري دون الشيخ العلوي، فالعلماء اسرة واحدة ولا يليق بي التمييز بين هذا وذاك، وتلا هذا أن شنع الحزب على أن الناصري جاسوس، وقد زار الشيخ المكّي شيخنا في بيته ودارت بينهما مذكرات في شتى الجوانب وهذا ما زاد الطين بلة في علاقة الشيخ بالحزب، وألب عليه تلاميذه عن تحزبوا فتأمروا عليه وكادوا له وجازوه جزاء سنمار، وذلك منهم رغبة في تحزب الشيخ ورعا لمصالحهم في الحزب، سامحهم الله.

أعلمه الرماية كل يوم **** فلما أشنت ساعده وماتني

وكم علمته نظم الفواني **** فلما قال قافية هجاني

وكم عاني غيره من الخلافات الحزبية والإجهاز والتخوين على من لم يتحزب⁽¹³⁾

هذه شهادة شاهد من أهلها الأستاذ عبد الهادي بوطالب في كلمة بالمؤتمر التأسيسي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية سنة 1956 قال عن تلك المرحلة :

..... وعن الجو المتعفن الذي ساد المغرب بالاتحاد ونيد الحزبية المقيتة وتناسي الأحقاد الماضية.

ورغم هذا فكان يسمع عن الشيخ وهو يدعو في سجوده : ربي لا تؤاخذ أحدا بذنب اجترمه في حقّي، ولم يسمع عنه قط أن قال في أحدهم قولا شائنا، فما أن يسمع عنهم أذابة إلا ويجأر بالحسيلة وبالقول سامحهم الله، وتلك الاخلاق الحقة للعالم الحق.

وكانت وطنيته لا تخلو من دروسه، ولكنه لم يكن رجل سياسة يعتمد التحميس واثارة المشاعر بأسلوب الضرب على الوتر الحساس، ويطلق ديمagogية لا غرو في أن تكون صحيحة أو كاذبة، جدية أو غير جدية، أو تكون تغريزية ومغرضة واستغلالية... الخ بل الذي كان يعتمد مرتبطا بمهمته بصفته عالما اسلاميا يعتمد الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ولا تأخذه في الله لومة لائم، إذ كان يرمز في دروسه إلى كفاح المستعمر في سلسلة من الاحكام الشرعية دون تحديد أو تعيين، فمثلا في احكام جواز قتل المهاجم المعتدي شرعا يمثل بالشرطي الذي يهاجمك من أجل منعك من عرض بضاعتك، ويعتدي عليها بالشنات والإفساد، فأنت إن قاومته فقتل قدمه هذر، ومثال آخر في استنهاض الهمم يأتي في تفسير الآية الكريمة «وأن الأرض يرثها عبادي الصالحون»

(13) هذه شهادة شاهد من أهلها الأستاذ عبد الهادي بوطالب في كلمة بالمؤتمر التأسيسي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية سنة 1956 قال عن تلك المرحلة :

..... وعن الجو المتعفن الذي ساد المغرب بالاتحاد ونيد الحزبية المقيتة وتناسي الأحقاد الماضية.

ويضرب المثل بالأُمّ العربية وما بلغت من شأو في الصناعات والمخترعات وإصلاح الأرض وبذلك ورثوا الأرض وأستعمروا العالم، بينما نحن تخلفنا وأفسدنا الدين والدنيا فيها أنتم ترون مصيرنا ثم نبتهل إلى الله أن يصلح حالنا، كما كان في إنتقاده لمشايخ الطرق ينعي على بعضهم موالاّتهم للنصارى يعني به المستعمرين ومساعدتهم على حساب إخوانهم المسلمين، وأذكرونا لما أبلغ الحلم أن دعائي إلى القدوم إليه بقهرست إجازات العلماء له بأسانيد رواية الحديث وكان من ضمنهم الشيخ الكتاني، فاستكتني مامعناه أنه أستجازه لما كان يعتقد فيه من صلاح وتمسك بدينه وأنه الآن لما ثبت عنه من خيانات ومن خروج عن بيضة الاسلام فهو مطعون فيه شرعا. فالوطنية نبعت من بيت الشيخ وليس أكثر من ضربه المستعمر في أهم وسيلة من وسائله، وهم مشايخ الطرق وسدنة الأضرحة، وما كان منهم إلاّ متعاونوا إما ظاهريا أو خفية، أو من مجرد تليدهم للشعب بترهاتهم وأراحيفهم، وكان المستعمر يحميهم ويجمع لهم الجموع ويقيم لهم المواسيم، ويكفي أنهم يخدرون الشعب بترهاتهم وخرافاتهم وتنيطهم عزائمهم بالاستسلام والخنوع. وفي ظروف الفوضى العارمة التي عمت المغرب من أهله بالسبية وبالمستعمر المكتسح للبلاد فقد قاوم سلاح العظ والارشاد والتوجيه، وسلاح البندقية والرصاص هو وتلاميذه وأهل بيته، ورغم الاستسلام أمام قوة المستعمر وخيانات المدجنين، بقيت شعلة الوطنية تتأجج في الصدور، وليس الشيخ فحسب بل شقيقاه أيضا، فأليست هذه وطنية صادقة ومقاومة حقّة.

والخلاصة أن وطنية الشيخ وطنية إسلامية توطرها أحكام الإسلام وأخلاقه، فكان يريدها مقيدة بالشريعة الاسلامية، وليست وطنية متحررة من كل القيود كما هو الحال في بعض الثورات والمقاومات العالمية أو بعض الوطنيات في دول غير إسلامية كانت مستعمرة، وإلاّ في نظره لن يبارك الله وطينتنا. ويصح القول في أن الشيخ كان في بعض جوانب وطنيته متشددا، إذ أبان عن كراهية للمستعمر أن كان يحرم التشبه بهم حتى في خصائص ألبستهم، وألف في ذلك كتابه إرشاد الحلياري في تحريم زي النصارى «وهذا ما ألب عليه بعض المتحررين فكان رحمه الله يعقب أن ياسبحان الله إنه مقبول منهم أن يصدر هذا عن غاندي وهو يتجرد من البسة الانجليز ويلبس نسج

بلاده، ويستشهدون في إكباريوطنيته تلك في مجالسهم ومجامعهم، ولا تقبل من عبد الرحمن، وهو كما تقول الامثال العامية المغربية «دباغ الترعة ما كيدبغش».

وناهيك، بما حصل من السلطات الإستعمارية من أجل مضايقة الشيخ، وقد سلطوا عليه دعيا للعلم جين به من مدينة سلا وكان عميلا لهم يدعي العلم والصوفية وعينا مدسوسا وقد زودوا داره بالهاتف، وكان يومذاك لا يتوفر عليه إلاّ من رضوا عنه، كما كان يحصل منهم على (كوطات) الاسمت والحديد يتاجر فيها، ويوم أن قدم المستعمرون بجملة من قواد المغرب لمحاربة المقاومة بالدار البيضاء، كانت عمارة الفقيه مقرا لقائد منهم ومسلخا للوطنيين وبها أسلم الروح تحت التعذيب صهر للشيخ وأحد أخص تلاميذه، وهو السيد عبد الرحمان السرعيني رحمه الله، وقد بثوا هذا المخبر العميل في المسجد المحمدي يقيم دروسه إلى جانب مجلس الشيخ، ويعمل على مضايقاته ولم يكن همه إلاّ الرد على الشيخ والتشويش عليه، وهذا ما أدى إحدى المرات إلى المشادة إذ تحرأ هذا الدعي العميل على الشيخ، فأشتبك أنصار الطرفين فيما بينهما، ونجح العميل في توقيف مجالس الشيخ من طرف السلطات، لكن الشيخ أستنجد بالملك سيدي محمد بن يوسف، فتناصره وأمر برجوعه إلى مباشرة دروسه، وخسى المظلون.

وكانت له علاقة طيبة بسيد الوطنية الصادقة المبرهن بها، والمرآة عليها يعرض الملك سيدي محمد بن يوسف، فكم من زيارة قام بها الشيخ للملك في اجلال وإكبار من جلالاته، وكم من حفلات بالقصر استدعي لها، وكم من مناصرة للشيخ تلقاها منه، وقد حضر الملك صلاة الجمعة بالمسجد اليوسفي في موكب رسمي، وفي أوج احتدام الصدام بين الوطنيين وسلطات الحماية، وكانت خطبة الجمعة من الشيخ آية في الوطنية وغاية في النصح. ويوم أن عمدت السلطات الإستعمارية ومن ورائها أذنايها من القواد وعلماء السوء على إبعاد الملك، لم يتردد الشيخ في حضور تجمعات الولاء بالقصر الملكي ضدّا على تكتلات قوى الشر، وكان ذلك باقتراح من حزب الإستقلال، وقد أقدم الشيخ على المغامرة رغم ما كان عليه الأمر من خطورة من طرف البوليس السري

الفرنسي الذي كان يضرب طوقاً على القصر ويستخبر عن القادمين إلى الرباط من كل الطرق المؤدية إليها.

وبغيره كثير من المواقف الوطنية المتميزة والريزية وغير المتميزة، التي انتهجها الشيخ من غير إعلان أو مباهاة أو تحيز، إيماناً منه بأن الخلاف عن تدبر وحكمة ونية صالحة هو رحمة بين العباد.

النزع الأخير

في أوائل الخمسينيات أصيب الشيخ بمرض السكري، وقد تولى تطيبه منه طبيب فرنسي كان هو المختص الوحيد يوم ذاك بالدار البيضاء، كما أصيب بمرض النقرس وقد عانى من آلامه الكثير، ولم يتوان في معالجته لدى المختصين في أمراض الروماتيزم، وأصيب أثناء الفترة تلك بعدوى مرض السل والمقرر فيه لدى المختصين أن لا علاج منه لمتقدمي السن، سيما وحقق البنسلين، حديثة العهد بالاكشاف، وكان مفعولها لا يتجاوز ثلاث ساعات، وزعمه فقد توصل الطبيب المعالج إلى علاجه منه، وكان الطبيب الفرنسي عضواً مراسلاً لأكاديمية الطب الفرنسية، يرأسها بتقاريره، ومنه ما يخص الشيخ على أنه توصل إلى علاج مسن والشيء بالشيء، إذ استطرد واقعة طارئة بتبين منها كذلك تنظير الشيخ للأمور، وذلك أن كان الممرض الذي يحقن الشيخ «بالبنسلين» كان حاضراً ببيت الشيخ من أجل ذلك، فإذا بشخص من الباعة المتجولين يمر بالرفاق يتنادي على بضاعته، وكعادة الاطفال في شقاوتهم وهم يعاكسون وقد تجرؤوا فإذا بالرجل يصيح فيهم بسب دينهم وملتهم لما تعرض له من شقاوتهم، فما كان من الشيخ إلى أن أخذ في التعوذ بالله من أقوال الرجل، حينذاك سأل الممرض الشيخ ما حكم الله في الرجل؟ فأجابته بان عذابه ربما أشد من عذاب مخترع البنسلين الذي رحم البشرية جمعاء، فحاشاً أن لاتناله رحمة الله من أجل ذلك، وأعوذ إلى الإشارة بأن للشيخ مؤلفاً في الخلود الأبدي المطلق للجنة والخلود المقيد لجهم،

وفي أوائل الستينات أصيب بمرض الحصر فعانى منه أشد العناء إلى حين وفاته.. وبالإضافة إلى تلك الأمراض المزمنة، فقد كان ضريراً لعقود من حياته وباشر العلاج في ذالك التاريخ من الثلاثينات، فلم يفلح الأطباء في علاجه، غير أنه يتقدم الطب، وخلال الخمسينيات كان كلما زار الشيخ طبيب العيون لعلاج الرمد أو بعض حساسيات العين إلا وأقترح عليه إجراء عملية مضبوطة النجاح في إعادة البصر إليه، فكان رحمه الله يمتنع رغم الإلحاح عليه من أهل بيته، قائلاً لم يبق في عمري كثير فدعوني هكذا فلعل الحاسة الوحيدة التي منعتها الله من فعل الذنب تكون الشقيقة لي يوم القيامة عند الله فيما يكون قد اجترمته الحواس الأخرى، كل هذه الأمراض المضنية والمؤلمة أحسبها الشيخ كفراناً للذنب، وصبر وصابر رغم طول المدة، وقد أقعسته عن إقامة حلقات التدريس وحطب الجمعة، التي كانت مهمته التي لا يرضى عنها بديلاً، وزعمه فما كان سلوانه عن المرض إلا كما قالت الحكمة «موت المرء على ما عاش عليه» فكان يزوره با تنظام بعض خاصته، وأحياناً بعض أنصاره للمذاكرة وتجادب أطراف الحد يث، فكان يجد في ذالك أكبر سلوان له عن المرض، فتراه يناقش ويحلل ويعقب ويرد و... دون ملل أو كلل، حتى إذا خرجوا من عنده عاد حاله بين من المرض وضعوطه، ويدعو الله الفرج، وكان كذلك من سلوانه عن المرض أن لم يفتر قط عن إملاء كتاباته، فكم من مؤلفات ألفها وهو على فراش المرض، لم ينقطع عن ذالك إلا قبيل وفاته بضعة أيام فقط.

وأمام إشداد وطأة الأمراض عليه وآلامها المبرحة لم يجد إلا أن يصرع إلى الله تعالى في أن يأخذه إليه. وكلما دخل عليه عواده رجاهم أن يتوجهوا معه بالدعاء إلى الله في أن يعجل بوفاته، فاللهم في الرقيق الأعلى، وهذا ما جعل بعض العلماء يردون عليهم عدم جواز تمني الموت، فجرد قلمه في التعقيب عليهم بمؤلفه المذكور «الحياة والفوت فيما هو الحق في تمني الموت» وأتذكر في هذا الباب أن أشدت وطأة المرض عليه يوماً وهو يعاني في صبر وجلد فأخذت أبكي إلى جانب سريره فتوجه إليّ بالسؤال أن لماذا أنا أبكي؟ فقلت أبكي ضارعا إلى الله تعالى أن يطيل عمرك، فقال لي: أتطلب المستحيل وغير المعقول، فهل الله تعالى: سيغير في عمري لوحدي سنة الخلق، فهل سيعيد لي شبابي

وقوته وأنا قد جاوزت الثمانين، فحتى إذا ما زاد عمري قلن أريد إلا شيخوخة وأن أتردى إلى أرواح العمر، تعذبني الآلام والأمراض وتتخر جسدي، ومع ذلك تفرح لعذاب والدك لأنه حي يرزق، فهل من العقل أن يفرح المرء لعذاب من يحب، فعليك يا ولدي أن تزن الأمور بغير أن العقل لا يميزان العواطف، ومن الأصوب أن تدعو الله مع ذلك أن يعجل له بالفرج، وليس هو إلا لقاء الحبيب بحبيبه وقد غفر له وأكرم متواه إن شاء.

وحدث في نوبة من نوبات الاحتظار أن أراد أحد الأصهار أن يجرب الشيخ في كونه لا يزال مسيطراً على أعمال قواه العقلية، فعرض عليه مسألة يستفتيه فيها، فأخذ الشيخ يعرض في شأنها أقوال العلماء فيصوب هذا ويدحض ذاك وأعطى فتواه فيها، وعقب بعد ذلك على السائل أن قال ليس الوقت وقت هذا.

ولما كان عليه الشيخ طيلة حياته داعية للسنّة وكانت فائدة العلم العمل به، وكذلك كان في حياته مع نفسه ومع ذويه ومع الناس، فهو وقد قرب أجله لم يرد أن يكون حتى عند تجهيز جنازته وتشييعها إلا كما كان قبل على الكتاب والسنّة فجمع أولاده عليه، يوصيهم باتباع السنّة في دفن الجنازة، فكانت الوصايا هي التالية:

- ألا تلعنوا عن وفاتي ولا تنتظروا بالدفن أحداً بل عجلوا ما أمكنكم ذلك

- أن تسيروا بالجنازة في صمت ودون تهليل.

- أن لا تدفنوني إلا في مقبرة عامة الناس، ودون تمييز ولا تخصيص، وإنما بين عامة القبور.

- ألا تدعوا أحداً يخطب على قبري مؤثراً.

- ألا تقيموا عليّ أرمينية كما اعتاد عامة الناس، بل دعوني ألقى ربي بما أسلفت، فلا تريدوني ذنباً على ذنب.

- ألا تبنوا على قبري وكل ما تفعلوه أن تضعوا شاهداً من أجل التعرف على القبر وزيارته للذكرى والترحّم إن شئتم.

- وألا تكتبوا على قبري إلا ما أُمليه عليكم، فسجلوه لديكم.

هذا قبر الراجي عفو مولاه وإكرام ضيافته حينما أرّحل إليه وخلف دنياه كما أسبلها عليه، لا زاد له منها إلا ذاك. عبد الرحمن بن محمد الشنقي

فلا تكتبوا سيّداً فعلى من أكون سيّداً وكلنا موتى لا سيّد ولا مسود، ولا الفقيه فمن قال أن كنت أفني عن غير محبة يفضاء فتحملت وزري ووزر من أفنتيت، ولا الحاج فمن أنبأنا بأن الله قبله القول الحسن.

فقي تلكم الليلة الحزينة والشيخ يحضر تجمعت الأسرة بخزانة كتبه الواسعة الأثيرة لديه، وهي كانت مبيتة وخزائنه وملتقى ضيوفه وعواده، وكنا طيلة الوقت نتلو القرآن الكريم وهو تمتد على فراشه هادئاً يصارع الموت، ودون تشنجات أو أنين أو أهات ولكن في استسلام وصبر وجلد وفي غير حراك ولم يفقد وعيه قط، ولا افتقد الكلام، وبينما نحن نتلو وقد بلغت بنا التلاوة إلى آخر آية من سورة «يس». حتى لاحظنا أن الشيخ رفع يده إلى أعلى، فظننا أنه يريدنا التوقف عن التلاوة، فتوقفنا تماماً عند الوقفة الأخيرة «فسيحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» فتقدم بعضنا إلى الشيخ ليستطلع الأمر، فإذا به يجده قد أسلم الروح إلى بارئها، فأجهش الجميع بالبكاء وما ملك أحدنا عواطفه، وأثناء ذلك سمع أحدنا من جهة فراش الشيخ قوله الله أكبر جهراً، فسكت الجميع ظناً أن الشيخ لا يزال حياً يرزق، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فعجب الجميع للصوت المكبر من يكون قد أتى. «وَلله في خلقه شؤون»

وكما أوصى، فقد شيعت جنازته في منتصف النهار فتجمع لها خلق كثير من المشيعين، وكان تشييعها في محفل رهب صامتا تخيم عليه الهيبة والوقار والتأمل كما منع أولاده بعض العلماء من تأبينه بالمقبرة تنفيذاً لوصيته، ولم يخص قبره، ودفن في مقبرة عامة، وما كتب على شاهد القبر إلا الكلمات الموصى بها، كما أن تأبين الأرمينية لم تُقم قط، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء 23 ذي القعدة عام 1385 هـ الموافق 15 مارس سنة 1966 م وتحضرني واقعة روحية مما كان يجمع شيخنا بحبيبه وتلامذته وأنصاره، فهذا محبه

الحاج محمد بورفايس من ساكنة أحواز الدار البيضاء، وكان متفانيا في محبة الشيخ ومن خاصة أنصاره، وبعد وفاة الشيخ يوم الثلاثاء دأب المحب على زيارة قبره كل ثلاثاء من كل أسبوع، وفي يوم ثلاثاء من فصل الشتاء وكان يوما عاصفا تقاعس المحب هذا عن الزيارة، وغفا نائما تحت شجرة من جنان في أرضه، ومن أن غفا حتى وقف عليه الشيخ مناما، قائلا: لئن لم يتيسر لك أن تأتي لزيارتي فهذا إذا قدمت لزيارتك فأجفل النائم واستيقظ، وكان قد لاحظ أن الشيخ كان في عمر الشباب، ويرتدي لباسا ناصع البياض، غير أن ببرسه (السلهام) لطلخته بقعة صغيرة وسخة، وقد بادر المحب هذا إلى عرسته المجروزة بحصان ليحتطيا ويسرع ثوبا إلى المقبرة، فجلس إلى القبر في خشوع وتأمل يتلو سرا ما حفظ من كتاب الله ويدعو بصالح الأدعية كمادته، وبينما هو على ذلك إذ علق نظره بنصب معلمة (الشاهد) القبر، وقد لطلحه سلاح طائر ما كان قد أحط على الشاهد، فأقدم الرجل على تنظيف الشاهد من اللطخة تلك، وأولها بأنها بقعة الوسخ التي لاحظها على البرنس في المنامة، حتى لكان لسان الحال دعاه لتنظيف نصب القبر.

وهكذا انتهت هذه الحياة الخافضة بالمكرمات، والعامرة بجلبيل العطاءات، فمن جهاد السلاح وجهاد الضلالات إلى جهاد التفريغ والتفريب، كل ذلك جرى احتسابا لوجه الله تعالى في غير افتخار ولا إعلان، رحم الله فقيد الإسلام وأجزل له الأجر والتواب، إنه سميع مجيب.

الفهرست

- 3 مقدمة استسماح
- 5 التعريف بالشيخ
- 5 المولد والموطن والنشأة
- 6 شجرة نسب الشيخ
- 8 دراساته على مختلف المشايخ
- 8 أ- النزوح إلى سطوات، وتلقيه دراسته الأولية
- 9 ب- رحيله إلى فاس، والتحاقه بالقرويين
- 10 ج- صلة الرحم بالأهل، وحضوره واقعة تدارت بالدار البيضاء
- 11 د- لطائف والطف اثناء المقام بفاس
- 12 الإقامة بخنيفرة
- 12 - تدريس ومقاومة
- 16 - الرحلة إلى الحجاز لحج بيت الله الحرام
- 19 - معاصرة الشيخ للمقاومة الزاينية للحملة الفرنسية ومشاركاته
- 20 1- واقعة الكارة بالشاوية
- 21 2- معركة أورغوس
- 23 3- معركة أوفود أوحيري
- 24 4- معركة لهري الخالدة

27	-احتماء الشيخ بجبال زليان
29	الرحيل والنزوح إلى فاس ومصاعب الطريق
33	- مصير أبطال المقاومة الزايرية الثلاثة
36	الهجرة من فاس وأسبابها
39	حلول الشيخ بأبي الجعد
40	حصول التفويض بين الشيخ والكتاني وإساءات الكتاني للشيخ
44	استقرار الشيخ بالدار البيضاء
47	سعة معارفه ومناهجه في التدريس
50	العالم المفسر
52	العالم الفقيه
54	الحافظ المحدث
56	العالم المشارك
57	العالم المجتهد المجدد
58	المعلم المدرس
59	العالم المفكر
60	العالم الداعية
62	شذرات من مناظرات علمية
63	1- مناظرة أجنب من هيئة تناسخ الأرواح
65	2- مناظرات أقطاب مبتدعة الطريقتين
72	من حرب الجمود والتزمّت إلى حرب الاتحاد والتفريغ
76	فهرست مؤلفات الشيخ
77	- إجتهاادات فقهية
82	- مؤلفات في مناصرة السنّة المطهّرة ومحاربة الطّرقية والبدع الضّالة المضلّة
88	- مؤلفات في الفكر الإسلامي والمقائد
90	- مؤلفات علمية

92	- مؤلفات وكراسات في مواد مختلفة
94	أبناء الشيخ
102	- سيرة الشيخ في أهل بيته
105	- جملة من المعروفين لدى كاتبه من تلامذة الشيخ
109	- علاقة شيخنا بالشيخ أبي شعيب الدكالي
120	وطنيات الشيخ
128	النزع الأخير